رواية عربية

بيروت البكاء ليلاً



شوقي عبد الحكيم

بيروت ... البكاء ليلاً

رواية عربية

بيروت البكاء ليلاً

شوقي عبد الحكيم

شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع

شوقي عبدالحكيم : بيروت ... البكاء ليلاً
الطبعة الاولى، كانون الثاني
يناير، ١٩٨٥
الناشر : شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع
الكويت ص.ب. ٢٤٢٦٧
تلفون : ٢٥٥٥٩٦٨ - ٢٥٤٣٣٢٩

قال : كان ما يعجبني فيها أو لا يعجبني . لا أعرف على وجه الدقة . احاول جاهدا الايضاح . هي تلك الحكايات الصغيرة الى حد الهيافة ، والتي تنساب على التوالي - من فمها - مع طرقعات الليدن - مرة على شكل سريان الذكريات ، تلك الأفعال المتراكمة كمثل قمامات المدن المحاصرة الموبوءة ، الا أنها على أية حال ذكريات تظل عالقة بالكائن ، مثلها مثل الجلد والبصمة وحجم الفك .

وقال بأن المهم هنا هو الحكايات . لا من حيث أني جامع لها أغترفها من أفواه الناس . . حين كان يأخذ طريقه في الصباح عبر الطرقات الزراعية والغوص في أوحال البلدان الصغيرة والبنادر والقرى ضاربة القحط والسواد بحثا عنها منسابة من فم لفم ، أفواه جوعى وشائخة وجنائزية لندابات القرى والبلدان المحيطة . اناس عمال زراعيون ورعاة وصيع ، تطحنهم محنهم اليومية ، والتي قد تمتد لأحقاب ، مضافا اليها الجروح . . تلك الندبات الغائرة التي تولدها الأيام والليالي عبر رتابة تتابعها المتوالي ، من ندبات قد تنبت مزهرة للحظتها ، طارحة من فورها حصادها ومواتها المعجل ، منها تلك النتئة أو الدمل الذي نبت للحظته مرة في قدم الخليفة العباسي الثاني السفاح ، وما أن دلكته له خليلته المصرية من تانيس - الغادرة - حتى تمدد ميتا . السفاح يموت .

فكم من ندبات تحملها القلب . وكم من جراح كانت تفيض بها حكايات القرى وفابيولاتها . تسأل . أهي ذاتها الندبات . الجراح . حتى هنا . لعله ذات الفم . التم . الايقاع .

كان قد قدم الى بيروت ، هاجا بجلده من قهر مدن أكثر حصارا من القاهرة . وكان قد عبر سلسلة متوالية من المصائد والحصارات من جمارك وتفتيش مرورا بعمان . الزرقاء . دمشق وبيروت . ألعلها ذات الحكايات . الحواديت .

قالت : انقطعت طفولتي بقرية الجنوب اللبناني السليبة ـ راشيا الفخار ـ منذ الطفولة وانقطاع الفطام . تربيت عند تيتا ـ في القنيطرة وحين تعلمت المشي وجاءت أمي للعودة بي وتعميدي اخترتها أشبينتي، لم أكن أعرفها . وحين التقيت للمرة الأولى باخوتي ، غريبة تائهة ، انهالوا علي ضربا جميعهم من كل جانب ، كمثل جوارح صغار .

قالت : وها أنذا منذ لحظتي تلك نهبا للضرب الجماعي .

كانت المدينة المثقلة بالحصار والعدوان بيروت ، مثلها مثل جسد بشري مقطع . على هذا النحو ، أو ما يقاربه قليلا ، تبدت لعينيه من نافذة السيارة التي استقلها من دمشق عبر تلال الجليد الممتدة . لا شيء يقطع الصمت سوى الطلقات المتبادلة عبر محاور ، أشلاء الجسد البارد الممزق ، على عادة آلهة الاخضرار الذبيحة . تذكره اله فينقيا الممزق ، الذي لحقته أيدي الاغتيال وليس الموت ، ادونيس ، وتموز ، ربط بينهما وبين أوزوريس مصر .

غمغم وهو يستجلي شعارات الجدران والميادين :

ـ جميعهم لحقتهم أيدي الاغتيال الجماعي عبر البراري . سواء أدونيس لبنان ، أو تموز ما بين النهرين ، أو أوزيريس مصر من سفلى لعليا .

كان قد زار عابرا الكثير من المدن الأقل خرابا . الناس على الدوام جميعهم غرباء ، ويبدو أن الوحدة الجاثمة تجيء ملازمة للقوة واستهدافها .

ولعلها المقولة الوحيدة لفيلسوف النازية والتفوق « نيتشه » . التي يحفظها له كثيرا « الانسان القوي هو الانسان الوحيد » . ورغم أنها مقولة مرعبة ، الى حد ما يحدث من دمار ، وتبادل اطلاق النار العنصرية على المحاور ، الا أنه تقبلها ، وقد تكون أراحته كثيرا ، الى حد تقبله لحالات تمريض نفسه بالقيء والمغص الكلوي . وحالات التسمم بالسكر ، عبر الفنادق والبنسيونات الرخيصة ، في باريس

والكوت وازور ، ومرسيليا وباب خضرا في تونس وسوسه . تلك المدن المذعورة بالخوف والتربص . وهو في كل حالاته غريب وسط غرباء .

في الأسواق الشعبية ، للحرامية وسلع البالات الروبابيكا . كان يحلو له الاستماع اليها . تلك الحكايات الصغيرة ، الأقرب الى ألوان الأطفال ورسوماتهم ، سوى من اختلاف ضئيل يتصل بالتصميم ، ذلك الذي يتملك الجسد الأساسي لكل حكاية مفردة ، حتى لتصبح مثلها مثل الكائن البشري الحي المهاجر دوما .

قالت : مفيش حاجة بتاعتي .

قال : منذ الضرب الجماعي .

تذكر ان بالقرب من ذات المكان ـ الجنوب اللبناني ـ سبق له التعرف على الحكاية الأم . حين أقدم اخوة يوسف الصديق ابن الجارية المضطهدة راحيل ، ابنة لابان بن تاحور السوري الفلسطيني الحوراني ، الأحد عشر ، على ضربه والقائه في اعماق الجب .

غمغم « لعلها ابنة غير شرعية ، لأم شامية فلسطينية ، ترويها الجدات والتيتات ، مع رضعات اللبن منذ المهد ، لتستقر في المخيلة ، وعنها ينتج ويجيء على عادة الارث والتوارث ، كل مسوخاتها . عبر جيل وما يعقبه وذاكرة وأخرى . الذاكرة مستودع الحكايات الصغيرة . أين هي فيها يحدث .

الطبيعة الراعدة عبر البحر والجبال ، والنار على المحاور ، وسيول السيارات والشاحنات الحيسة الكسحاء . على الطريق المتعرج ما بين دمشق ومداخل بيروت .

قدم هذه المدينة هربا بجلده من حصارات أكثر قسوة . لماذا كل ما بداخل

حقيبته لا يعدو مخطوطات الحكايات الصغيرة والاستطرادية التي دأبت الشفاه على تلوكها بلا توقف أو هوادة ، من حيث انها تحفظ ما يمكن ان يشابه الذكريات ، تلك التي مكانها الذاكرة . مستودع الحكايات الصغيرة ، التي قد توغل في قصرها وايجازها ، الى حد المأثور . النكتة. أين هي فيما يحدث ، من حصارات الجليد ، ودوي الانفجارات وتلك الشورة الجائمة الثقيلة المغيبة لكل مرئيات .

وفي لحظة متقاربة ، بل لعله « أتموسفير » متناسق ، هو ذلك الذي جمع بينهما منذ أول لقاء ، حيث جاء كلاهما هاجا من بلده ومسقط رأسه ومرتع طفولته ، هي من احدى قرى الجنوب التي يحتضنها الجبل الشاهق الماثل ، راشيا الفخار هربا من اعتداءات اسرائيل المتاخمة . وهو من احدى قرى الفيوم ، وما اشتهر عنها منذ فخار ما قبل التاريخ ، والدولة القديمة ، مرورا بفخار الاقليم الارسينوى البطلمي الهليني الروماني والقبطي ، وحتى أيامنا ، حيث يقوم الفلاحون وحفارو المقابر بنهبه بالمقاطف والجوالات من « كيمان فارس » واهناسيا المدينة ، وأبوصير الملأ ، وجميع الهوارات السبع ، واللاهون .

أكداس من التماثيل الفخارية المهشمة في عمومها كان يحرص في جمعها على ما تبقى منها من رؤوس الآلهة، والملكات والآلهات: ايزيس، حورس ، نفتيس ، هاثور ، واله الموتى حارس الرمم انوبيس الذي يحرص تجار الآثار على تلقيبه بابي الحصين .

هي هي ذات البلدان التاريخية للموتى وما خلفوه للأحياء . هي بذاتها الموغلة في العوز واللا أمن .

قال : لعلها هي هي المعضلة الجاثمة لسيول السيارات والشاحنات الحبيسة داخل أكداس الجليد ، ويشاع عبر نداءات السائقين واجهادهم ، أن الأمر قد يحتاج الى نجدات عاجلة بالهيلوكوبتر .

الأمن وافتقاده .

عبر كل المحاور الملتهبة بالجليد ونيران الميلشيات .

وبدا هو بدوره ـ المهاجر ـ بمنظاره الطبي ومعطفه المتهدل ، وهو يرقب وجهه بلا تعمد في مرآة السيارة ، مكفهرا .

كان قد بدأ يغزوه خوف حقيقي على محتويات حقيبته . نصوص حكايات فقراء فلاحي مصر ونداباتها ، التي دونها للمرة الأولى من افواههم ، أهازيجهم وغنائهم وندبهم الذاتي بقلم رصاص أو كوبيا ، وظلت حبيسة عنده منذ أكثر من عشرين عاما الى أن جمعها بترابها وأودعها حقيبته المهترئة هذه التي أصبحت غارقة في مياه الأمطار ، والتي لا بد أنها لحقت ورقها الأصفر الرخيص المهترىء . انها كل ما خرج به من بلده سواء الفيوم ، أو قاهرة السادات التي أدماها القهر وألبسها شاراته ـ أو طرحاته ـ السوداء ، المهينة .

****

رأى نفسه عبر الفراغ الجليدي اللانهائي ـ ولدا صغيرا بطيء الايقاع يسعى عبر جموع زاحفه من صبيان وبنات وكهول وعواجيز ذات مطلع نهار ـ قبل طلوع الشمس ـ الى أحد الموالد الموسمية القريبة . يتسمر مبهورا أمام الاراجوزات والخلابيص ومقاهي الهواء الطلق ، وحركات الغوازي والصيته من المغنيين الشعبيين ، مواصلا تنقلاته عبر ايقاعات الاذكار ، ومنشدي دلائل الخيرات ، ودقات كوديات الزارات الهمجية المهيجة من سودانيين ونوبيين وصعايدة .

الى أن كان يوم قرر فيه جمع وتدوين ما يسمعه من حكايات وأشعار من خضراء دنيوية ، لحمراء جنائزية ، على ورق كراساته المدرسية ، وكلما تراكمت نصوصها ، راح يسترجعها بالقراءة والتمثل على ضوء اللمبات الغازية ، قبل أن تدخل الكهرباء بلدتهم .

لكم كانت رحلة شاقة وعرة مضنية امتدت لأكثر من ثلاثين عاما ولكم هجر كل شيء بحثا عنها . . الحواديت ، حتى مدرسته ، ومساعدة والديه .

أصبح لا شيء يمكن أن يتملك مخيلته ، سوى السعي،بلاد وقرى اثر بلاد بحثا عنها من أفواه الناس ، من سائلين وشحاذين ورعاة بهائم وندابات وممثلات وكوديات وحراس مقابر ولصوصها ، الذين عادة ما تغشى عيونهم نهارا وفي وضح ضوء الشمس ، لكنها تبرق ليلا فيرون على عادة المعبودات الطواطم من كلاب وأبناء آوى .

حكايات تروى وتفيض في سرد مواجع وآلام بطلاتها من اطفال جنينية تعاني الاضطهاد والمطاردة منذ أن كن نطفا في بطون أمهاتهن الحوامل ، لحين اكتمالهن على مدى انقطاع حيض النساء ، عبر أشهر الحمل التسع ، وذلك حين أقدم عمال

وبصاص كل من فرعون مصر مع موسى ، ونمرود بابل وما بين النهرين مع ابراهيم الخليل .

وأخرى توغل في رصد معاناة فتيات ـ بنوت ـ كست الحسن والجمال في مواجهة زوجة أبيها ، واخوة كبار في صراعهم مع أشقائهم الأصغر ، يقطعن من أجسادهم بالسكاكين ، لتتحول الأعضاء المتقطعة من فورها الى نبات زهور الأكاسيا الدامي عبر البراري وبحيرات التماسيح ، مفتوحة الأفواه للالتهام ، وعيونها تسح دموعا بلا هوادة ، في حالة أقرب الى التحسر ، منها الى أمراض العيون ورمدها ، كما لو كن أناسا من بين الانس ، مسخن الى حيوانات خشبية مجففة ، تسعى على طول البحيرات المسحورة ، قارون ، وبحر يوسف والنيل ، عبر حالات التحولات والتبدلات في حكايات وخرافات سحر المشاركة والأثر ، بين ساحر شائخ وصبيه الفتى الذي علمه كاره ومهنته يوما ، ولما فاقه واشتد ساعده رماه . مثلما حدث بتمامه في حكايات السريان النساطره والسورية اللبنانية بين وزير البلاط الأول الحكيم احيفار وبين صبيه وابن اخته ـ الانتهازي ـ نادال أو النذل ، الذي انتهى به صراعه مع خاله الى أن يواصل ضموره وتضاؤله ليصبح كمثل قملة الحنطة ، يفسدها الى حد معاداة الاثمار والازدهار ، في جدلية علاقتها . ملازمة الافساد للنماء ، والموت والانتفاء لمعاودة الحياة .

من حكاية نسائية نمطية ، لزوجات خائنات تظل تواصل اختزالها عبر العصور ملخصة في مأثور أو نكتة بذيئة وخادشة ومحرضة .

زوجات لصات وفتانات ومخلصات وشبقات ، نادبات أحوالهن في بكائيات جنائزية ذاتية :

مسيكي بالخير يا عود الأنا يا روحي
يا للي تيابك على الجسم ترد الروحي
بكره آخذ اسمي واسمك واكتبه في اللوحي

واعلقه في الهوا الطاير لاجل البكا والنوحي

ومنهـــا :

يجــازيــك يــادي الــعــدو يجــازيــك
يــا لـــلي بــتـبــحــت فــي حــضــانــا
بعـد الجميـل مـا كـان رامي الـرمـاميــل
خليته جفانا .

حكـايات تلوكهـا الحلوق ، وهي الأصل فيـما يحدث ، سوواء الآن عـلى المحاور . أو في ذلك الاضطهاد المزري الى حد التكافؤ بالتجاذب .

ان يلتقيا .

****

- ٣ -

تذكر انهم كانوا قد أخذوا الموسى بجرابه الأبنوسي من جيبه الخلفي حين ضبطوه معه ، فتحفظوا عليه ووضعوه بعناية في خانة المضبوطات بجمارك عمان .

حين تجمهر حراس الحدود البدو قصار القامات ، بكاباتهم الزرقاء فأحاطوه من كل جانب وعاودوا التفتيش عبر جيوبه حقائبه . استه .
حاول افهامهم في صمت مشيرا الى ذقنه ورقبته استراب الركاب وبقية المسافرين ، وتحسس أكثر من راكب بدوي مناطق عنقه بعيونهم في استرابة .

الناس عبر حواجز الحدود والجمارك لا يعرفون بعضهم البعض ، سوى انهم يتبادلون الكلمات العجلى .
على طول الطريق الصحراوي تتراص شاحنات وقاطرات المازوت .
تزايد سوء وضعه ، حين عثورهم على بضع حبات لأدوية مختلفة ، وقدم صول وكاتب مدني بيده قلمه ، ليجري التحقيق حول الموسى ، وأوراقه الكثيرة المهترئة الصفراء ، وشرح لهم الوضع في صعوبة وحكاية الحكايات .

قال بان الأمر لا يعدو ، بضع حواديت ونكات عامية وخارجة بذيئة لبطات وشحارير وابراص وعناكب وزواحف ، من تلك التي على بطونها تزحف وترابا تأكل وتقتات .

هداهد لها هيئة الطواويس ومن فصيلتها ، رسل الحب بين بلقيس الملكة وسليمان الحكيم .

ضحك الجنود قصار القامات في حياء وكأن الأمر فاضح الى هذا الحد .
وربط الكاتب المحقق بملابسه المدنية ، بين الموسى الابنوسي في جيب المهاجر وبين الأوراق والكراسات . الورق .

لماذا يكرهونه .

كان له وجه طويل عظمي ناحل ، وكان له ـ دقة ـ تركوازية لوشم ثلاث حبات هرمية لعنبات ، أو تفاحات . يدخن بطريقة متواصلة ـ وبين وقت وآخر يبصق في سلة بين قدميه ، معاودا الكتابة والتلصص .

وأجابه : بأن من السابق لأوانه الربط، بين أوراق حكايات قديمة، كان قد جمعها منذ زمن من أفواه العامة ، بنفس ما يحدث في حالات جني القطن وآفاته ، وهو أمر عادي غير ضار بالدرجة التي يربط بينها وبين الموسى ، الذي لم يفارق جيبه الخلفي منذ الافراج عنه عبر صحارى مصر المحاطة ، احاطة الرمل بالواحة ، وعبر سلسلة متناهية من محاولات الإطباق عليه وجها لوجه من كل جانب ، على عادة ما يحدث مع الحيوانات الضارية ، التي أفضت به بدورها لأن يصبح مثلهم ومن فصيلتهم . . . ضاريا .

دفع طاولة المحقق . في الوقت الذي أطبقت عليه من كل جانب العساكر القصيرة في محاولة لمنعه من الوصول بمرفقه إلى طاولة المحقق ، مجاهدا في عنف حقيقي لمقاربة سلة الزبالة بين قدمي المحقق الموشوم ، لينكفىء باصقا مسعلا في عنف أقرب إلى السعار الطويل المصاحب للأغماء وحالاته ، مهوهوا على عادة الكلاب الضالة :

ــ هو . . هو

ظل يسعل مهوهوا منكفئا عبر مساحة الصمت المطبق وقيام المحقق المدني الموشوم عن كرسيه الخزراني مبتعدا ، ووجوم العسكر وذعر الصول السمين ، إلى أن دفع له أحدهم بالسلة وآخر بكوبة ماء ، ثم شاي بالنعنع ولفائف . وانتهى الموقف ، بنجاحه في كبح ذلك البكاء الداخلي الملازم للسعال والسعار .

اعتذر للجميع وشدد عليهم مسلما ، خاصة الصول الذي أشار بجمع

حاجياته وحين عاد إلى السيارة رحب به الجميع ، وانطلق السائق الفلسطيني من أريحا عبر حواري عمان المتعرجة المتصاعدة ، بموازاة البيوت الواطئة والمتعالية على مدى التلال التي تعتليها المدينة .

تزايدت النار على المحاور .

قال : يبدو أنها بيئة ملائمة لأن ينبت فيها نبي الصبر أيوب الدمشقي ، فالناس هنا سواء الركاب الأربعة الذي لا يجمعهم سوى السيارة وسائقها ، يبدون مستسلمين ، حتى عندما سرت اشاعة أن الأمر قد يحتاج إلى نجدات عاجلة بالجرافات والهيلوكوبتر لخروج سيول السيارات والشاحنات من حصار الجليد المتراكم الجاثم ، والنار المستعرة على المحاور .

أينما وجد الناس تستعر النيران على كل المحاور .

كان قد خلفها في القاهرة ، لتطالعه هنا في بيروت هي هي ، فلعله ذات الوهج ، درجات التوتر لزوجة الجلد الأصفر الافتقاد داخل غابات المدن المعنية المحاصرة بالخوف والتربص والتي تتحين في كل لحظاتها الغوص العمودي . الاختباء ذلك المصاحب للطرد . فهي في كل حالاتها وتواجدها طريدة ، لا مكان لها في فلك القدماء ولا العائشين . إنها هي بعينها سليلة ذلك الحيوان أو الإبن النوحي الطريد . لا مكان .

أجل هي حيوان الماموث الجليدي القطبي ، الضال في طوفانات الحشرات وزواحف الأرض التي تفيض في سردها الحكايات القديمة الغرق المحقق للابن أو الابنة الضالة . . الخوارج .

المدن .

الضواري .

ولعلهم يتواجدون بكثرة حتى هنا ، إنهم يتكاثرون بمعدلات أكبر بالطبع سنة أو محنة عقب أخرى . وهم كانوا سببا دائما لهجرته . . شتاتاته ، رغم انقطاع كل صلة يمكن أن تقربه من طرقهم ، مفاهيهم أفكارهم الموصلة إلى حد التدمير .

قال : لعله الموسى .

تحسس جيبه الخلفي منزعجا ، في لحظة مشابهة لتلك التي أحاطت به فيها جند الملك سمر الوجوه والقفيان ، وتذكر أنهم أخذوه .

ما أن دق جرس الباب وفتحت له صاحبة المنزل وهي تلقي على وجهها الناحل العظمي الأصفر بمنشفة قطنية ، متراجعة هلعة من منظره بمنظاره وقامته العظيمة التي بدت مفرطة الطول في مواجهتها ، مثقل تحت حقيبتيه الجلديتين ، وكيس ملابسه المنزلية .

ساعدته في ادخال حاجياته وهي تجاهد في تذكر اسمه ، وقامت بدورها أختها هلعة من فراشها رغم النيران المستعرة على المحاور .

أزالوا بقايا المياه والجليد المتساقط من على معطفه وتحلقوا حول الفراش من فورهم يرتشفون الشاي وحكى لهم في ملل قصير ما حدث . وعم صمت مفتعل اندفع المهاجر خلاله يحاسب نفسه . فلعله أيضا ذات الجو ، ذلك الحزن الدفين الرابض في أعماق الفتاتين ، وهو بدوره معهم . لماذا هو في كل حالاته . تذكر على الفور السور الطيني الممتد على طول مرمى البصر ومن داخله تمتد أشجار الكافور والسنط وذقن الباشا ، للمقابر الممتدة في مواجهة شباك بيتهم الريفي ، ولاينقطع ، لجنازات النساء المتشحات بالسواد ، والنيلة التركوازية والزرقاء ضاربة القتامة تلطخ وجوههن وسواعدهن وهن يندبن ، وينوحن ، ويرقصن في حلقات . وفي حالة نادرة ،حين يكون الميت من « أسرة »وهو صبي صغير ،لم يتزوج بعد - ويدخل دنيا - تستخدم الجنازات الدفوف الواسعة العنيفة .

بينما تستخدم جنازات الرجال المصاحبة المشيعة لنعش الميت فرق المزيكة الشعبية التي تستقدم من المدينة القريبة بكامل أزيائها - الفرايحي - الأوكر ، وطرابيشهم الحمراء وآلاتهم النحاسية تدق أمام المرحوم - العازب - وكورس دلائل الخيرات ينشدون بأصواتهم الباص والباريتون ، متبوعين بجوقات النساء .

كل هذا من أمام شباك بيتهم ، وهو ما يزال يعتلي كتف أمه ، يشهده يوميا

عشرات المرات .

قال حين سألته كبراهن عن شروده ، وهي تميل عليه لتعطيه قطعة من البسكوت المجفف ، ألقى بها على الكنبة :

ــ تذكرت الحزن في مصر .

قامت صغراهن وكان لها وجه فينيقي ينحو إلى الاستطالة وشعر أسود طويل مسترسل ، وكانت تمقت المهاجر ، تثاءبت طويلا وهي تطوق رأسها بمرفقيها ، بيدها كتاب لمح عنوانه « الشقيقات الثلاث » .

ــ عن اذنكم .

تذكر تشيكوف ، ذلك الأسى المقطر داخل المنازل . شقق عواصم المدن المحتدمة بالنار والتربص .

الناس حين تتبادل الأحاديث بلا طعم . أهمية . انتباه . في الشرفات ومن حول المدافىء وألسنة اللهب .

حين يرتشفون الشاي ، ويعانون من كره بعضهم البعض . الأم وابنتها وشقيقتها ، الأم وأبناؤها الذكور والاناث ، حيوانات البيت الأليفة ، برامج أجهزة البث والتوتر .

قال : لعله شيء أو احتياج ضروري . تعرفه بكثرة ، وضوح أكثر في زنازين المنافي وقلاياتها على مدى الثلاثين عاما الماضية .

لكم وفق سارتر في مأثوره الملخص عن جحيم الأخرة . الابنة . الحبيب .

تعرف من فوره ، حين نزع ـ بريهه ـ الأسود عن شعره وصلعته . ان كلتا

الأختين تضيق بوجود الأخرى ، إلى حد الكره .

وتذكر بالدقة أنه هو بذاته ما يجاهد في البحث عنه ، بدءا من عمله ـ وكاره ـ ومهنته ، وهو حقل حكاياته وطرائفها :

ــ الكره .

ذلك الذي يحاول الجميع تجنبه والافلات من قبضتيه الماثلتين على الدوام ممزوجا في حنكة بنقيضه وتوأمه ، من حب وتدله .

وهو ما أغفلته النصوص القديمة التي خلفها الموتى من الأسلاف والجدود ، في ثنايا وصاياهم وتمائمهم المقدسة والمحظورة ، ذلك أن الحديث عن نقيضه أنساهم واقعه الماثل المتواجد ، سواء في ثنايا ذلك النقيض الوله يبطنه متدثرا ، ويخالطه مخالطة التنفس .

إنه الشهيق الزفير
الخارج المنسل
عبر عمليات التلوث
عبر اللحظة
طرفةالعين
ودقة ساعد .
الناس هنا تحت الشرفة
في الشوارع ونواصيها .
أين موتانا .
قتلانا
أين

تساءل حين أخرجه من غفوته على حافة الفراش صوت الأخرى العظيمة

الكبرى الطفولي :

ـ أحسن حاجة في الدنيا الحب .

ـ لماذا يكرهها .

صحيح إنه لا يعرف كلا الأختين بالقدر الكافي ، ورغم أنها فتحت له بابها في الساعة الثالثة ليلا ، وأخذت عنه اغراضه ، حين لم يجد صديقه ، لمجرد المعرفة العابرة للجيرة ، إلا إنه يبدو غارقا في حرجه ، افلاته اللا مجدي من قبضة تواجدها .

قالت :

ـ أخذوا كل شيء . الأم والأب ماتوا ، والضيعة نهبت حرثوا أرضها بالشاحنات والدبابات . قطعوا كل أشجار الحديقة . شجرتي ، وشجرة عاليه . فاكهة من كل الأصناف . زهوري أحواضي .

مالت عليه مسرعة لاكزة ، مشيرة إلى حجرة عالية التي كانت وقتها تسعل في عنف متلاحق عالي الصوت :

ـ أطلقوا النار على الوالد . والد عالية ، في حديقة بيتنا الجبلي . من ثلاثة جهات متقاربة .

صنعت بمعصميها العظميتين هيئة مثلث متساوي الأضلاع أطلت منه بوجهها فترة في مواجهته .

تعالى سعال العالية بشكل مجهد ، وجاهد هو في أن لا تعاوده الحالة . هب واقفا مزيحا الستارة عن الشرفة الزجاجية معانيا .

المدينة كانت قد بدأت يقظتها . دويها اليومي مع مطلع ضوء النهار البيروتي ، والحرب الأهلية العنصرية تعتصر رحيق أناسها شوارعها .

هاهو الشارع في بيروت .

سعال صغرى الفتاتين لا ينقطع ، بينما الأخرى تعدد مصائب بيتهم الريفي وضيعتهم الجبلية ذلك الفردوس الصغير المفتقد الذي كان .

وتصور المشهد عبر اسطح العمارات الممتدة من حوله . العالية بجدائلها السوداء تقف في شرفتها مطلة على الوالد الهرم ، مفتش البريد والبرق العتيد ، بسترته الداكنة وحقيبة يده الجلدية خارجا عبر طرقة حديقته المتعرجة ومثلث الجنود الفاشست يطبقون عليه من أضلعه العدة ، مطلقين النيران في لحظة متقاربة .

الأب يسقط على وجهه في طين حوض زهور البنفسج ، ومن حقيبته تتناثر الخطابات .

العالية تلطم وتسعل بشدة ، بلا صوت .

ولم يكن هناك بد من الخروج .

عاد المهاجر متخليا عن الشرفة ، باحثا عن معطفه الجبردين إلى داخل الشقة .

وحين غطس بوجهه الطويل الضامرالعظمي ، في ماء حوض غسيل الحمام الدافىء قال :

ــ تكفي مرة واحدة ، حاله . البكاء ليلا . يكفي ما جرى ، لولا ذلك الصول المكرش السمين . تذكر تعبيرات وجهه ، انكماشه بعيدا بحذاء الجدار المشاد من الآجر المشوي الأحمر. ويبدو أنه غطى جانب وجهه الملحم بقبضتيه يرقبه عبر أصابعه ، بنفس ما فعلته الأخت الكبرى . . الماجده ، منذ هنيهة . حين أطلت عليه من مثلث ساعديها الصفراويين ، وهي تصف الطريقة .

أزاح الصابون عن عينيه ، فالشماليه تعاني آثار رمد قديم :

ــ حين أحاطت شلة الجند ، بالوالد في حديقة البيت ، ودوت الطلقات . وسقط مدير البوسته ، غاص وجهه بلا تعبير في طين حوض الورد ورغامه .

- ٥ -

عانى المهاجر حين اندفع خارجا من باب الاسانسير ، ومدخل البناية الداخلي المطوق والمتعانق بجذع شجرة عنب عملاقة مجففة ، ماتت منذ زمن .

عانى من استقبال عينيه لضوء النهار المتقدم ، حين تلقفه الشارع ، دلف عبر صفوف السيارات وتاكسيات الخدمة العامة والشاحنات ، من جانب لآخر ، ومن تقاطع لما يعقبه ، تطلع هنا وهناك للقناصة على أسطح البنايات الشاهقة يدخنون ويفطرون في تراخ . تذكر البكاء ليلا .

تناول قهوته واقفا مشعلا غليونه في وجه المارة . الناس هنا لا يتطلعون في وجوه بعضهم البعض بالقدر الكافي ، سوى ان أحدهم دلق بضعة قطرات من قهوته على سترته معتذرا .

وتطوعت عجوز بازالة البقعة بمنديلها .

اندفعت مجموعة من الجنود جارية في أعقاب سيدة ضخمة حافية بيدها مشعل مضاء بالقار والزيت في وضح النهار .

وكما لو أن القهوة حركت معدته ، ذلك أنه قاوم طويلا وسط الزحام والتدافع ، لينتحي جانب الشارع ، مرجعا .

خلف نفسه ماشيا في اتجاه معاكس للجند الفارين أو المنتصرين ، وعند آخر الشارع ، شاهد المرأة تعتلي اطلال بناية قديمة بيدها مشعلها وشعرها الطويل الفاحم استطلعها من زوايا الطريق فترة ، ليجد انها على ما يبدو اعتلت قاعدة نصب تذكاري أو تمثال رخامي متهدم وليست بناية ، ومن حولها الجند ، وراحت تخطب مهددة :

ـ قاتلوهم . سدوا الطرقات .

اندفع يجري في الجهة المقابلة ، مسندا منظاره بيده اليسرى ، بينما الناس تتدافع من حوله وتسبقه بمسافات واضحة القسمات ، حتى النساء المنفضة من حول أفران الخبز والسوبر ماركتس ، وعربات الخضار ، لينضممن الى طوابير الجارين .

دوت طلقات الرصاص ، وجاءه صوت المرأة الضخمة البنيان ، وكما لو كان يعنيه هو بذاته :

ـ سدو الطرقات . . المنافذ . . ادفعوا بأيديكم الطويلة ، كل وكر وجحر وبطن أم .

حاول أن يستدير منفلتا في عنف من يد تحاول اللحاق به ، حتى ان جيب سترته انقطع فلم يعبأ به جاريا متقدما بأقصى قواه ، حتى انه تجاوز بعضهم من الذين سرعان ما واصلوا تقدمهم ليجد نفسه في مؤخرة الفارين ، عرضه لنيرانهم ايديهم الطويلة الى الخلف.وهم بالقطع أكثر سرعة، حنكة ، توقد،كما انهم يمتلكون أسلحة أكثر فتكا ، مضافا اليها العقول الخبرات المناهج الملخصة ، القفزات المباغتة للضفادع والحشرات النطاطة .

قفز بشكل أدهشه من قدراته ، مخترقا صفوف النسوة والعواجيز المحتمين بالجدران ، محافظا على جديد عن تفوقه تقدمه أكثر الى المقدمة .

جاهد طويلا في الاحتفاظ بتوازنه ، أن لا يصطدم بالباقين الأكثر حركة ، وعدواً ، وتفادى محاولة من احد الشبان ، لشنكلته بشكل واضح ، حيث يسقط منبطحا . تلافى في حيوية ادهشته ، سقوط المنظار .كارثة .وضحك بعضهم من لخبطته ، وهو شبه منبطح على ركبتيه يجاهد طويلا في استعادة توازنه ، استقامته قائما ومواصلة العدو ، بقامته الطويلة واطرافه العظمية المترامية ، بينما ربطة عنقه قاتمة الزرقة ، تتطاير من حول عنقه والتعليقات لا تكف عن ملاحقته .

حاول تعرف موقعه من الشارع الراكض بكامله من حوله وأمامه . وما ان حانت منه نظرة الى الخلف ، حتى هاله انه آخر الفارين .

دلف الى حانة ، كمثل شق في جدار متناهي الطول والاظلام ، والاضاءات الخافته الحمراء ، ملقيا بنفسه على أول فوتيه صادفه ، خلع منظاره وبيريهه وفك وثاق قميصه ، ظل يلهث ويسعل طويلا ، دون أن يثير أي انتباه .

كان من عادته عندما تغزوه النوبة وتقتحمه أن يركز بصره عن آخره على شيء محدد يتملك انتباهه دفعة واحدة .

وجاء ذلك الشيء : دمية لها حجم بشري ، عرف فيها بعد انها احدى عرائس صقلية ، بملابسها الكثيرة الزاهية الشعبية ركبت فوق منصة الى الخلف قليلا من المكان المعد للجوقة الموسيقية ، لها شعر أنيق قصير كستنائي ، وعلى صدرها النافر تتدلى الخرزات ، وباحدى يديها مظلة يابانية من الحرير الشيفون الملون .

اندفعت ترقص قافزة في الهواء رقصات صقلية على انغام البيانولا ، لحين الايذان بخروج وفود الراقصات ، ولهن هيئة الدمى وايقاعها .

عرف من فوره وهو يجفف عرقه بمنديله ، ان الحانه يونانية وبخاصة حين قدم له الساقي كوب ماء مثلج ، فطالبه بمشروبه معتدلا وهو يعيد التطلع الى المكان : ٤/١ روم .

كانت الجدران مغطاة بورق حائط له ملمس القطيفة السوداء والحمراء القانية ، وحتى طريقة استخدام الورود الصناعية والصحراوية والمحنطة ، جاءت متناسقة ، مع اضاءات الشمعدانات الكهربائية ذات الأفرع الثمانية ، وعلى طول المكان وقاعاته المتعرجة انتشرت مرايا طولية مقعرة ومحدبة .

ولما كان المساء قد بدأ يحط مع ارتشاف المهاجر لقدحه الثالث ، بدأت وفود

الزبائن تتوافد في جماعات . صبيان وفتيات في سن متقاربة جميعهم يتحلقون حول الرقص ، في تدله . بل ان بعضهم وبعضهن سال لعابه من منظر دمى صقلية الزائرة هذه الليلة .

ومن المطبخ انتشرت أبخرة الأطعمة الشعبية ، من اسباجتي لسندوتشات اللحم بالعجين ، والنقانق والشواء .

وتسمر واقفا من فوره حين شاهدها ، داخلة في اعقاب شلة شباب ، وتلاقت عيونهما الأربعة .

قال : أيمكن أن يحدث أن أخلفها هناك في شوارع شبرا المظللات ، لتدخل على هذا النحو .

اندفع ناحيتها من فوره معترضا سائلا ، مشيرا الى الشارع خارج الحانة القبرصية :

ــ عملوا ايه ؟

ــ مين .

ــ في الخارج .

تأمله مليا :

ــ هي ذات العيون المطلة من تحت الجبهة المدفونة دفنا تحت الشعر .

قال : ــ الفارين .

تعالت الضحكات المربكة من جوانب عدة ، فانسحب من فوره عائدا معتذرا لها منحطا على طاولته .

اتخذ افراد الفرقة الموسيقية أماكنهم وتعالت الموسيقى المحمومة الراقصة ، وعلى الفور ازدحمت الحلبة بالراقصين من الشباب وبضعة عواجيز .

وحين تغيرت الاضاءة فاصبحت أكثر سطوعا ، آلمه جدا سوء حظه ، في ذات اللحظة المكفهرة التي طالع فيها استطالة وجهه في مرآة الباب المواجه

المحدبة . على ما كان يغرقه ويتملكه في نحت البرتوجياكوميتي .

بدا وجهه شاهق الاستطالـة ، أضفـت عليه المـرآة ساحـات وهالات من المساحيق اللونية البلورية ، فتبدت له جبهته مطبقة على حاجبيه اللاكثيفين ، وجلد وجهه المشدود المجفف ، أما أنفه فواصل استطالته بدءا من رأس تلك المرآة النافذة اللعينة حتى ما بعد منتصفها . وبين وقت وآخر تطغى صور الحشد المتزايد من الراقصين والراقصات ، وعبور السقاة في صعوبة شديدة ، بأيديهم صواني الطعام والمشهيات على صورته ، فتريحه من المدى المفصح المشوه الذي تضفيه المرآة الهازلة .

تذكر المرأة المحرضة وربط بينها وبين المرآة ، تعتـلي التمثال المتهشم تحت قدميها الحافيتين بيدها مشعلها .

وطالعه وجه الفتاة التي سألها منذ هنيهة ، على الطاولة المقابلة تجلس مع أصدقائها ، كمن تجاهد في أن تراه ، وترى المرآة من خلفها فترة .

عم الضحك لفترة قصيرة ، وجاء صوت المغنية المرحة اليونانية أجشّاً الى حد مؤلم :

« قطعني حتت
وارميني في الزيت » .

قدمت اليه الفتاة ، فقام وأجلسها ، حين اشعلت لفافة وسألته عما كان يسأل .

حاول ان يميل عليها بجذعه الأعلى ، مكملا مضغ طعامه ومزته الخضراء .
ــ برا . . كتير . كانوا ينجروا . . الشارع ورانا . . وقدام .

ويبدو أن الفتاة لم تفهم شيئا ، سوى كلمة « اسرائيل » ذلك انها اندفعت بدورها تحكي له عن بلدتهم الجبلية « راشيا الفخار » حين ربط بينها وبين فخار

الاقليم الارسينوي ، دون أن يسمع منها كلمة واحدة صحيحة ، نظرا لصعوبة تفهمه للهجتها الجنوبية ، وعواء الآلات النحاسية ، والمغنية نصف الصلعاء ، والضحكات المدوية ، ونيران المحاور ، مما شجعه أكثر على حل وثاق لسانه بالخمر حين قال :

ـ اجمع حكايات حواديت . ما يلوكه الناس . الجدات النينات .

قالت :

ـ الناس .

قال بتراخ :

ـ الناس . الرمم .

****

- ٦ -

حين تلقفه الشارع البارد ، ظل يغمغم لنفسه بصوت شبه مسموع .

ـ المعضوض يعض .

تذكر خرافة تجارية معاصرة عن الدراكولا . ربط بينها وبين العدوان المتربص يدق الأبواب . . الصهيونية ، دون أن يعرف لهذا سببا .

ظل يتقدم في اتجاه البناية حيث الفتاتين وكتبه.حاجياته.مرددا ميلوديته الكئيبة هذه ، عن جدلية المهان المضطهد .

واجه اطلال التمثال المرمري المتقوس ، الى ان وجد نفسه داخل مجاله ، كتله المتناثرة ، اقدام حصان ، اعالي كتف ، كفة يد ، منشة ، مشعل روماني الطراز والزوايا . عين .

قاوم نوبة نحيبه الليلي ، رغم شاعرية المكان الذي كان يهدر في وضح النهار ، بالناس والميليشيات في اعقاب المرأة المحرضة على سيد المنافذ .

كان ملتقى الشوارع ومداخلها يشيع فيها الصمت المتوجس ، برغم الهدنة الملفقة للمتناحرين ، وضوء القمر المكتمل باشعاعه الرمادي الفضي المتمدد على البنايات المحيطة في استرخاء .

ربط بين المكان وبين معمارية وميتافيزيقية دي شيركو ، معابد ومصحات وقصور ومحاكم وأبنية اريكايك، تحوي تماثيل هلينية وايونية واتروسكية معظمها أقرب الى التهاوي . . التحلل .

وعادة ما يتسلط جانبا على هذا العالم الحلمي الكابوسي خراج جلدي دامي الاحمرار ، يتمدد قانيا من أحد زوايا مقدمة اللوحة ، كحبل مشنوق .

قضم ساندوتش السجق مستعينا على دهونه بجريدة النهار المنصرم .

استعاد نفسه . . مظهره ، حين كان يركض غير فزع على رأس ركب وفي مؤخرته ، منفلتا في حنكته من تلك القبضة ـ القفازية ـ التي لامست كتفه الأيسر ، الا أنه انفلت مطلقا ساقيه للريح بشكل أدهش الجميع ، خاصة حين تحول ركضه الى نوع من التزلق الدافع الى المقدمة ، دون اخطاء كثيرة مفضية الى الاصطدامات والايقاع بالآخرين . يده على شنبر منظاره ، والأخرى قابضة على الجريدة التي بداخلها سندوتش السجق الزيتي ، لا تلين .

قام من فوره ، ملقيا ببقايا اكله ، منحدرا نازلا عن الاحجار ، مجهدا وجاهدا في تذكر أقرب الطرق الى حيث مسكن الفتاتين ، متحمسا في لهفة من تذكر شيئا يهمه . ان لم يكن اليوم فغدا . تحسس عنوان فتاة الجنوب القصيرة المهجرة التي التقى بها في الملهى القبرصي .

****

- ٧ -

ما ان دق جرس الباب وكان له صوت الصلاصل اليونانية والايجية الشعبية ، حتى أحس المهاجر من فوره بالاظلام الذي عم عين الباب السحرية ، وسط ظلام الطرقه المديدة الموحشة .

تسمر في مواجهة العين محاولا الابتسام غير البعيد عن التوسل فترة طالت الى حد انه عاد يجاهد في أن يتعرف الوقت في ساعته الفوسفورية ، وهاله انها تقارب الرابعة صباحا .

أعاد طرق الجرس ووصله همس طويل مصحوب بحدة تمادت الى حد العنف والضراوة تبعتها صرخات الاستغاثة المكتومة التي سرعان ما خالطها صدى أشياء تتهشم وتوجعات انتهت الى الضراعة الكاملة والعواء المفضي في كل الحالات الى الصمت المطبق .

فتح الباب كمثل شق ضنين عن جسد الأخت الصغرى الجهمة ، بينما اندفعت الأخرى الأقل حجما تتوارى هنا وهناك ، مطلة برأسها الصغير الدقيق المكفهر من تحت الكنب ، واغطيته ، نافذة كمثل جرذ بشري الى ما خلف ستائر الشرفة الزيتية ، مطلة بعينيها الخرزيتين التركوازيتين :

أشارت له العالية بالدخول وهي تجذبه بامتهان جلي من كتفه الأيسر :

ـ ادخل .

تحاشى نظراتها وتحرشها الاصطناعي ، وهي الفتاة الصغرى التي لا يخلو مظهرها وسلوكها اليومي في وضح النهار ، من الحياء والتناسق ، أما الآن على هذا النحو الضاري .

تحاشى من فوره عينيها ، وأفخاذها السمراء الوردية المتناسقة وهي تضع

بتحد تبدى في عيني الأخت الكبرى الضئيلة التي كانت لحظتها منكمشة في افتعال واضح الى جانب انثناءة جدار بالقرب من ألسنة النيران ـ نيران الفحم المتوقدة داخل الموقد المرتفع النحاسي .

شغل نفسه عن عينيها وفخذيها، باسترجاع بضعة مشاهد، قراءات، ذكريات لها مستودعها ، منها : كيف أخذ القديس مكان الأسير في السفينة . والسيد مكان اللصين المغمغمين الفاهمين .

« خلص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها »

ومنها : ظهر مدير البرق ماشيا بين أحواض زهوره المستأنسه في بطء شديد ، الى حد ايقاع الضحية ، استكانتها .

مضى من فوره مسلما على الأخت الكبرى ، الأقل حجما ، التي سرعان ما استعادت توازنها ، ابتسامتها البريئة متقدمة منه في ترحيب بالغ . في ذات اللحظة التي عادت فيها العالية الى حيث كانت تجلس على كرسي أو « بوف » واطىء الى جانب مدفئة نحاسية هائلة الحجم تغلي بنيران الفحم وعليها آنية القهوة .

ولم ينقض كثير وقت حتى اندفعت كلتا الأختين تكيد للأخرى ، قالت العالية في اتهام مشيرة بذراعها كله الى أختها الكبرى دقيقة البنية .

ــ ما كنتش عايزه تفتح لك الباب .

بينما ارتمت الأخرى أمامه على البساط الأخضر الرخيص محملقة في وجهه المخمور النائم كمن تستطلع اعماقه ، ما يعتمل في اعماقه :

ــ ما تشرب من القهوة دي .

في الوقت الذي صبت له الصغرى فنجانا ضخما اناضولي الطراز ، مشيرة في شبه أمر :

ــ خذ .

هب من فوره راكضا منحنيا قابضا على يدها بالفنجان .

في وقته . آه الصداع .

انقضت الكبرى مغتصبة الفنجان من يده ، جارية الى المطبخ المقابل ، وهي ترشفه في نهم .

بينما اشارت له العالية من مكانها :

ــ ميته من زمان .

وصبت له فنجانا فاخذه متراجعا ، مرتشفا وهو موقن مما به .

مضت الماجده ترقص وتحادث نفسها طويلا وهي متقوقعة في شباك المطبخ .

أما هو فمضى يتخفف من ملابسه استعدادا للتمدد والاغفاء ، دافعا عن مخيلته اشياء احاطته متلاطمة ينقصها التتابع ، ان لم يفسدها . ذلك ان حركتها جاءت مستعرضة ، ان لم تكن ايضا مكركبة لسراديب بكاملها تطلق عنانها .

حاول اعادة التيقظ مسلطا عينيه على عيني العالية في جلستها لجذب انتباهها دون جدوى .

حاول بضعة مرات الكلام ، تحريك اصابعه في حذر من أمام عينيها الكبيرتين المسلطتين دون أدنى رمش منها .

عاد متمددا متمرغا على الفراش واراحه جدا انه ها هو اخيرا وحيد . قوي في كل حالاته ، بلا عين اخر . رقيب .

راحت الماجدة تغني لنفسها في شرفة المطبخ تحبو على اربع في بطء ومعاناة .

تذكر عالم المصور الروسي الأبيض المرتد ، كاندنسكي ، لمدن زرقاء طائرة وقذائف وسقوط متهافت للطبيعة ومرئياتها . تداخلات الأحمر مع زرقة السماء بلا غيوم كثيرة . قباب وكاتدرائيات وأقبية .

وتذكر أزقة المدن العتيقة بالاسطورة والمعمار ، تلك الشقوق وسراديب

البيوت وباحاتها ، ابوابها التي عادة ما تعلوها ايقونات الحيوانات والطيور المحفورة على الأخشاب المقدسة ، المشئومة ـ اللاعربية ـ من تماسيح وبوم أم آويات وحدآت ، لطرد الأرواح الشريرة التي عادة ما تتلبس الغرباء من امثاله ، الداخلين .

ربط بينها وبين أدعية داخلي المنازل .

ـ يا ساتر يا اهل البيت . يا من هنا .

الناس في تدافعها افواج اثر افواج في سوق الحميدية . ومن حول المسجد الأموي يخلعون الأحذية المداسات .

والماجدة تزحف ببطء طويل سلحفائي الى حد التوقف في حيزها الضيق على أربع كمثل رضيع داخل رحم .

وتذكره من فوره ، ذلك الرحم الخالق ، الذي توقف امامه كثيرا في الانتيكخانة ، ومتحف الانسان حين طالعه فور دخوله مهمهما أو هو مترنما على عادة الداخلين الغرباء .

ـ المعبود الأول .

الماجدة داخل الرحم .

قال :

ـ تسقط من الشباك .

أما الأخت طويلة عظم الوجه ، فقد غطست طويلا في سباتها . سمراء اوصلت نيران المدفئة النحاسية بسقاطاتها جسدها افخاذها الى درجة من الاحمرار ضارب القتامة ، مضت تمدد اطرافها مسترخية اكثر على كرسيها الواطىء الى حد ملامسة بلاط الشقة .

تفرس في وجهها طويلا ، حين انفرجت شفتاها المزمومتين الصارمتين عن

كلمات احجية لها طابع النصوص المحفوظة .

مد رقبته الطويلة النحيلة وهو يزحف طويلا الى ان قارب حافة الفراش ، وعيناه ان لم يكن انتباهه بكامله معلق بـالصوت الكلمـات . تيقظ حين قـارب السقوط عن الفراش ، ولفحه أكثر وهج نيران فحم العنب المعبق المشعل .

ولما لم يسمع المهاجر شيئا بأكثر من الطلقات المتقطعة لحين الدوي المتقطع من العالية المبنجه ، فقد زارته من جديد حكاية مدير البريد بشعره الذي خالط بياضه سواده ، داخل مثلث نيران الميليشيات الفاشية ثم وهم يضحكون .

****

- ٨ -

ما ان هب المهاجر العجوز من اغفاءته القصيرة تحت لسعات ضوء النهار المتسلل عبر ستائر الشرفة ، وتحسس منظاره متطلعا ورأى الوضع على حاله ، حتى تسلل الى حيث معطفه وحقيبته ، فحملهما مواصلا فراره .

قال :

ــ العالية تسقط في النار .

تلقفته الشوارع المجنونة بالجري ونيران المحاور . الجموع المتدفقة حول افران الخبز والبوتيكات . والمرأة الضخمة الجثة على رأس ميليشياتها ، تعتلي البنايات مطالبة بتضييق الخناق . للتنفس .

اتخذ من فوره تاكسيا الى أقرب شقة مفروشة ، أشار عليه السائق بها .
بناية بيزنطية الطراز والمعمار غاب عنها طلاؤها ، تقبع بأسوارها المتعالية كمثل حصن خربه اعداؤه يتصدر احدى جادات بيروت وحواريها .

غمغم من فوره حين تمدد على فراشه الجديد بملابسه :
ــ تسقط في النار .

مضى يتقلب في فراشة ، محاذرا أن لا تعاوده الحالة ، حاول ادخال البهجة الى نفسه مغمغما « عش في خط » الموت كمدا على كل فراش كنبه صوفة سجادة ادبخانه . . أدب خانه . ما الفرق .

تذكر مخلوقاته الحبيسة التي كانت داخل حقيبته الكبرى : من شطار ، ولصوص مهرة ، وأفاقين ، وسائلين لهم هيئة آلهة قمم اشجار الأرز والبكاء المتسامقة .

« عندما تسمع صوت أقدام في رؤوس اشجار البكاء »

ربط بين أشجار البكاء المتسامقة العلو ، وبين مقولة رابين الشهيرة خلال عدوان ٦٧ لطياري جيش الدفاع الاسرائيلي :

ــ تذكروا ان اسرائيل كانت على طول تاريخها تنفذ من السماء .

غمغم :

ــ لعله يهوه الطائر المحارب .

وتذكر حكاية ذلك الرجل الأبله الذي امسك بعندليب بشري ينطق بالحكمة فسخر الطائر الأخرس ، محلقا في انتصار من على رأسه ريشه .

قردة بالنهار يأخذن في التحول والتبدي الى فتيات فاتنات مع غياب الشمس ودخول الليل الفطيس ، يعجن العجين ويخبزن ويطعمن حيوانات البيت الأليفة أو الجبانة .

ملوك تهتك عروشهم ، حللهم الملكية ، جلودهم في مواجهة رعاياهم خصيانهم ، ويتسمون في اليمن الغابر بمزيقيا .

بهائم ترعى في الجدب وتراب الأرض ، بدلا من المراعي المزهرة المحيطة الفارغة ، حتى لا تسمن وتشبع فتشطح ناطحة أصحابها ، حكامها السلطويين الخونة .

هداهد وطواويس متلصصة كمثل شرطة القمع والمباحث . الناس داخل الأقبية المفضية الى مدن البيع والشراء بالصلاة على النبي ، بل وبلا صلاة واستنجاء ، تأخذ حاجتها . . ما يكفيها وتمضي ، والويل للخونة اللصوص الجشعين ، العثمانيين . الصول الخائف المرتعد منه في محنه سعاره على مشارف عمان وتلالها يحتمي بالجدران ، بطوب الآجر الأحمر ، يداه على وجهه كمن يخفي عينيه ، يحتمي بالرمال والتراب لمؤويه ، يخاف الطرد المحقق في كل الأحوال . العصور .

حاول ادخال البهجة الى نفسه قائلا :

ـ خايف مني .

اعتدل جالسا على حافة السرير ، ومضى يتخفف من خفيه معانيا في تذكر ما حدث .

ـ تلك القهوة اللعينة

انثنى يدلك معدته متلويا، حين طالعته صورته في المرآة، على هيئة شخصيات فان جوخ ، جاحظة العينين ـ الشمامين ـ بجلودها السوداء المشققة تحت معارك الألوان الهستيرية أو الانتقامية ، تتحسر مسندة على الجدران الصماء التي لا ترد تحية . صدى لصوت ، دوي انفجار . ماذا حدث .

ساءه وضعه الى حد أنه تسند واقفا ، منكفئا مقررا اخراج مواد حقيبته . كراساته . الناس وزواحف الأرض الزانية والفتانة وناكرة الجمائل . أين هي . حكايات الموتى . آثار اقدامهم ، حكمة السلف من صالح لطالح . ما يحدث على المحاور ، وعبر الساحات المحترقة بالقار والنفط . المانيكانات الشمعية المسيجة بالمرايا في الأسواق التجارية ، كتب الأرصفة ، الباروكات ، وسينمات السيكس آبيل وجيمس بوند . والاميركان جوجولو .

وجه العاليه سلبية الارادة بجدائلها وردفيها على وهج السنة الموقد النحاسي ، تسقط على وجهها سائحة كشمع قاتم .

لو ان شخوصه تحركت من حوله ، اخذته معها من حيث جاءت . لو أنه سمع صراخ الأخت الكبرى الضامرة الى حد طفلة داخل رحم ، محذرة :

ـ ما تشرب من القهوة دي .

تذكر انها عادت فخطفت فنجانه وارتشفته بكامله . لعلها ما تزال داخل قفصها بشباك المطبخ على ذات النحو .

جاهد طويلا هذه المرة في منع نفسه ، من أن يجهش بالبكاء ، حيث هو وحده بلا عين أو رقيب ، سوى المرآة المؤسفة المحدقة تترصده من جوانبه العدة ، كمثل شخص يقظ لم تلحقه قهوة العالية تكبرها :

ـ اشرب .

ها هو نهبا لأسره الاختياري يمزق جلد وجهه ، بينما من المرآة تطل عليه في خرسها فتاة راشيا الفخار . . الجنوب . بقميصها قاتم الزرقة ، وحنانها الطافح تضع من فورها يدها على فمه كمن تمنعه من الصراخ . النحيب الليلي ، الذي يلازمه منذ ان كان يحبو على أربع كمثل دواب الأرض . . جرذانها .

في تلك الأيام الخوالي التي سبقت دخول الكهرباء وتوابعها من بوتاجاز وراديو وتليفون وتلفزيون وشاحنات وسيارات الميكروباس والتيوتا وسخانات الماء والسيفونات .

اندفع يحبو عبر الحواري الموحلة والمتنزهات الغاصة بزهور عباد الشمس ونجيل الأرض البري ، خلجان الضفادع ، وفراشات ديدان القز ، والحدآت العملاقة المهاجمة ، سارقة الأطفال الرضع ، كما تروى عنها آداب الكلام . القطط وولائمها المسحورة في أعياد اللحم والضحايا في عالم الدواب وما تحت الأرض .

حاول تذكر واحده دون جدوى . تذكر بدلا منها ، حكاية انكيدو مع حيواناته البرية ، تلك التي كان يعاشرها عند موارد المياه ، الى ان اقتنصته عاهرة أوروو حين كشفت له عن فرجها ، مهبلها الصغير المكفهر ، حيث كان يستبقى مع حيواناته من غمور وأيائل وحمير وحشية وحيات .

فكان ان ضاجعها سبعة ايام وست ليالي ، وحين عاد الى حيواناته ، ادارت له ظهرها وفرت هاربة منه . يا للادانة .

قام من فوره متسندا فاتحا حقيبته الكبرى ملقيا بكومات كراساته ونوته

وأوراقه الصفراء ، وهو يجرها جرا الى حيث الطاولة الكبيرة التي أعدت للأكل والولائم فأحالها الى مكتب تعلوه اكوام الكتابات الخطية والمراجع الرثة . تحسس رأسه بين كفيه ، مبعدا شبح ذلك الكابوس الليلي .

ـ ابدأ بالتصنيف . هه . ها هي حكايات الجان المردة النداهات ام الشعور ، اشباح ما تحت الأرض . اين ؟ ومن عليها في كل شق ومكان وأينما وجد حيز ، تلك التي ما أن يواجهها الانسي :

ـ اتشطر على من قتلك .

حتى تتوارى من فورها ، ان لم تحترق بنيران احقادها حيث هي .

ها هي حكايات الأشجار واخشابها المقدسة من زان وجميز وعوسج . حين ارادت الأشجار يوما ان تولي عليها ملكا هو العوسج المتسلق الذي هدد من فوره بأن تخرج نيرانه لتحرق ارز لبنان . هه .

قال وهو ينحني هنا وهناك بشكل آلي ، مغيرا من اوضاع اكوامه ، كمن يفنط أوراق كتشينة :

ـ الحيوانات والطيور وزواحف الأرض المشئومة والنجسة لها خانتها في هذا الدرج ، من كلاب واتان وغربان وبوم وضباع وحيات زانية .

ـ ثم يجيء الدور على حمامة الايك والحما ، واليمامه ومدنها على طول جزيرة العرب العارية ، والعنكبوت الذي له سورته (وليس صورته) كحيوان او حشرة منقذة سبق أن ضللت مغتالي الغار ، غار حراء ، وفوتت عليهم فرصة الاغتيال الجماعي .

ـ دمه على الجميع .

قال :

ـ يبدو ان القتل البشع الممزق ، كان من الميسر حدوثه في مكة واتمامه بنجاح ، لولا العنكبوت التلقائي المبادر .

قال :

- ويبدو أن الهدف لم يكن القتل لذاته ، بقدر ما هو تغيير مسار الاسطورة البدوية ، لولا ذلك العنكبوت الدينامي المناور ، لتغير كل شيء ، كل شيء .

تذكر كومة لعب الأطفال ، فعزلها مبعدا :

ــ كوك كوك . انتو نصارى والا يهود .

ترنم :

ــ أنا الغراب النوحي
اخطب واروح على سطوحي .

واعجبته فابيولات صديق الفلاح المصري ، ايس أو ابوقردان ، ذلك الذي ينسب له انه عيط عيطه شق الحيطه .

قتل ولاده وقعد مسكين .

ساعتها كانت قد غزته النوبة ، التي عادة ما يسبقها السعال ، وجاءته منكفئا على اكوام اوراقه ، فراح يزيحها بذراعيه المشمرتين بعيدا ، وآلمه أكثر انه عاد فهدم جهده المرهق ، تصنيفه ، مرة اخرى يختلط الحابل بالنابل ، والغلة بالغلث ، سعل قائلا :

ــ الغلث .

جاهد طويلا في منع النوبة . مركزا جل ما تبقى من انتباهه ، اين . على ذلك الجاثم في مرآته ، حكاياته من شفوية ومدونة . ذلك الصرع الامبراطوري المقدس ، للذبيحة الرومانية يوليوس قيصر .

اراحه قدرته على الافلات من حصار الحالة ، واصل تنفسه المتعسر ، ملقيا بنفسه على الفراش . نام .

****

- ٩ -

مع مطلع النهار قام من فوره متصعبا ناشف الريق متأملا اوراقه المبددة المنكفئة من حوله هنا وهناك ، وازعجه اكثر الوان ستائر البيت ، وتلك الكثرة المفرطة من الورود الصناعية والصحراوية التي تزحم فازات الشقة . تأمل شريحة البحر الممدد الصافي من الشرفة حيث على الجانب المقابل منه يتربص العدوان وهو يرتشف قهوته السادة ، مسترجعا قهوة الأمس . وتصور دهرا متصلا متلاحقا ، لم تشرق له شمس قط ، ذلك الأمس الأبعد من اليوم بالغد . يالها من ليلة ، تلك السراديب المنسابة التي منها وعبر شقوقها تسربت شخوصه من موتى واحياء . جميعهم جاءوه وحاوطوه إحاطة السوار بالمعصم جنبا الى جنب ، الخالق الناطق ، ذات التماثل ، الاحساس بهم معا : الموتى الأحياء .

تساءل وهو يغير ملابسه متخاذلا استعدادا للخروج للنادي لحضور السيمنار الدولي ، حول ذات الموضوع . . اللا آمن :

ــ كيف حدث .

وفي النادي حاول جاهدا طرد الأمر كله ، بل ربما الرحلة بكاملها ، بدءا من وباء السادات ومهاتراته مرورا بصول عمان المختبىء ، حتى العالية وقهوتها المرة .

كان الحفل قد بدأ فأضيئت أضواء القاعات بالاضافة للتلفزيون الملون .

اتخذت الوفود أماكنها ، مع انفتاح باب أقصى القاعة المواجهة ودخول الرئيس ورؤساء الأقسام ، ودوت القاعة بالتصفيق لثوان متصاعدة ، لحقها هو على الفور مصفقا ، بل هو قام واقفا معبرا اكثر عن حماسه ويقظته وهو الخبير الجديد في حكايات القرى . . الجدات .

جلس وحده حين أخذ الرئيس ونائبته مقعديهما جنبا الى جنب . وكذلك بقية الوفود والضيوف من متحدثين ومستمعين ومراقبين ومتفرجين .

كانت القاعة الفسيحة الفسيفسائية غارقة في الضوء القوي الساطع ، بما يسر الأمر على كاميرات التلفزيونات ومصوري الصحف ، وبخاصة الصحفيين الذين انتشروا من حول الوفود والمنصة الرئيسية والرئاسية ، كمثل زنابير داخل خلايا نحل .

وحين دارت أكواب عصير الليمون والبرتقال والمانجو ، تذكر ما حدث رغم انه كان لحظتها مستغرقا بكامله في تتبع الندوة الدولية « ثقافة القرية والمدينة في الشرق الأوسط » وتمنى جاهدا طرد ما حدث . كما تمنى ان لا يصيبه الدور في يوم كهذا تجيء حصته فيه من الكلام . . المحاضرة

قال :

ـ الأمر لا يعنيني بالدرجة الكافية ، العدو المتلاحق الذي تحول بالفعل عصرية يوم أمس الى حد المطاردة ، الحصار على تلال عمان ، تجبر الأخت الصغرى مع مطلع هذا النهار الذي يبدو انه لن ينتهي بشكل مباشر على خير ، يتيح العبور بعده في هذا الجسد ليوم جديد . اين . ها هو الرئيس والرئيسة يفتتحان الندوة الدولية ، ويبدو مما يحدث ان الأمر لن يطول ، ليلقي بدلوه ، فعليه ان يسترجع الموتى قبل الأحياء . قريتهم وتخومها ما حول بحيرة قارون ، قرى الجبل المحيطة هذه التي يمكن لأي محاضر أن يتلمسها من شرفات السمرلاند ، ممددة تحت شمس هذا اليوم الربيعي رغم ضراوة الحرب الأهلية .

تفرس بعض الوجوه من عرب وأجانب . يضعون سماعات الترجمة الفورية على آذانهم ، وهم منصتين للكلمة الافتتاحية للاحاطة بالموضوع .

ذلك الماضي الحي . ضيعة الفتاتين وفردوسهم المفتقد . الهدف الأخير

للعالم من قديم غابر ، لمعاصر ماثل متواجد .

انتهى كلام الرئيس ومن جديد دوت القاعة بالتصفيق ، الجميع آلفهم التصفيق الحاد فيها عداه ، بما أتاح للرئيس ونائبته وبعض الحضور ملاحظته في حرجه ذاك ، وهو يعاود الانكباب على البرنامج الشامل ، للكلمات ، والمحاضرات والاطروحات والمناقشات .

دارت عدسات التلفزيون فاعتدل مستبشرا . بعض البروفيسورات والباحثين عندهم « دسك » ، أمراض مكاتب عصرية ، تصيب البروفيسور منهم في قفاه أو سلسلة ظهره الفقرية ، وبعضهم رمد صديدي والبعض ارتعاشات ، وعمى الوان وقلب ، ونقرس .

اما الاكتئاب فيستبد بالأغلبية العظمى مثله ، لعلها حالة التحسر ، حاول طردها من مخيلته حين غزته على مشارف تلال عمان . قال لنفسه محذرا وهو يصلح أو يدون بعض الملاحظات على مرأى من الجميع .

ــ غير معقول بحال . هنا وعلى مرأى من الجميع ، خاصة أولئك الحاقدين المتربصين . هذا الحصار بالعيون والكاميرات ، ليت الأمر يقصر أو يطول وينفض السامر الذي غاب عنه صاحبه . القرية والمدينة ، ما الفرق في الشرق الأوسط ، في عمان ودمشق والطائف وصهرجت الكبرى والكعاى والدامور والقاهرة وصنعاء ودير مواس ، ما الفرق في هذا الشرق الأوسط .

وحتى لو جاءت الطوبة في المعطوبة ، وحدث الفرق ، لن يصل الأمر الى حد يدعو الى الانزعاج ، ذلك الذي يغمر الشارع ويطفح على طول الشرق الأوسط ، وهنا الفرق حين يمكن طرح القضية من منطلق زمني بأكثر منه مكاني فراغي ، طفح الماضي واغراق الحاضر العربي الماثل على اعتبار ان « الماضي يفسر الحاضر » ان لم يغرقه ، عاليه قبل واطئه :

ـ أجل أيها السادة ، فالمدينة في الشرق الأوسط ما هي سوى صورة متطوره ان لم تكن معدلة من القرية والنجع والبادية . هكذا الحال مع عمان وبيروت وقرطاج وطرابلس والقاهرة .

هي هي بادية الجاهلية الأولى والثانية ثمود وقراها الخمسة .
هكذا الحال في مخيمات الشارع .
حيث تباع الأطفال الرضع .
حسب المواصفات .
لون البشرة وخفة الدم .
ناهيك عن أسواق النخاسة المعاصرة
اللحم الأبيض والخمري .
هنا على النواصي والسوبرماركتس
البوتيكات ومشارب الشاي .
المحاور

دارت المناقشات بعمق ، تساءل أكثر من باحث ومتخصص واثنى بعض المشاركين على توجهات الكلمة الافتتاحية وشجاعة الندوة لذاتها المقامة تحت وابل قذائف حرب الشوارع والتهديدات المعادية بحثا عن حل . أين .

شحذ ذهنه في محاولة للتكامل مع عقول كثيرة للخروج من المأزق الغرق. رفع اصبعه طلبا للكلمة ثم يده بكاملها ، دون ان يسأل فيه أحد . واصل المحاولة ولم يستطع ، ظل هكذا يطلب الكلمة دون أن يلفت نظرا . ما الخبر . الجميع يتكلمون في استطراد فيما عداه . لماذا هو وحده في كل حالاته . الجميع يلغطون ، يتبادلون اللفائف والمداعبات ، التواعد باللقاء ، المراجع ، الآراء المفيدة .

وحتى عندما رفعت الجلسة لتناول المرطبات والحلوى ، وانتقل الجمع الحاشد في جماعات الى حيث بوفيهات قاعة الطعام التالية ، ظل هو يتحرك متعسرا

جامعا حاجياته باحثا من تحت منظاره في تسلل عن شلة يأنس اليها دون أن يلفت نظرا ، يتبادل معها حوارا ، وجهة نظر لا غير . وكما لو انه احبط كلية في العثور على وجه أليف مرحب .

توجه من فوره الى أقرب طاولة فاعد لنفسه طبقا من الجاتوه وعصير الليمون - قال :

ــ الليمون هو الحــل للافلات مما حدث . تلك القهوة المشـؤومة . استند بـالجدار وحـده وراح يتأمـل الجمع الحـاشد من حـوله وأمـامه ، يـرتشفون مشروباتهم . يدخنون في شره ، يتبادلون النكات والمزاح ، يسترجعون معلوماتهم مضيفين ومصححين . آخر المعلومات ، الاحصاءات ، المناهـج ، الاتجاهـات البنائية . أجل شتراوس . . ليفي .

حاول ثلاث مرات التقرب من مجموعاتهم دون جدوى . كـانت الشلة أو الحلقة ، تتقارب في أشكال ثلاثية ورباعية وفي معظم الاحايين ثنائية ، رجل وامرأة لتدفع به خارج قطرها ، في محاولة منـه لتلافي الـوضع بشكـل رياضي ، حيث عادة ما يدفع بعنقه النحيل الطيع من حيث التمدد والعودة الى التقلص والقصر في اتجاه ياقة قميصه والكرافتة متراجعا ، مواصلا البحث بلا كلل عن موضع آخر في مناقشة يدلي فيها برأي ، وجهة نظر :

ــ على الاطلاق . ليس هذا ابدا هو الحل . اجل ليس هذا هـو المنطق الجدلي المفضي الى حل لن يجيء ابدا ويكتمل الا مع التشخيص وترصد الحالة ، والتي لن تغدو ابدا ، طفح الماضي الى حد الاغراق للحاضر ، ما نحن فيه ، وليت الأمر بقاصر على الثقافة في الشرق الأوسط ، لكنه يتمدد سرطانيا محتضنا الشارع والبيـدر ونقط التفتيش والكمائن ، وحرس الحدود ، التي عادة ما تتصدر لافتاتها الخطية الطرقات ورؤس المسئولين والجدران ودورات المياه وبيوت الراحة .

« أمة عربية واحده ذات رسالة خالدة »

وحين بادرته سيدة أنيقة بالسؤال عن الحل الذي يبحث عنه الجميع في عيون بعضهم البعض ، أجاب من فوره :

ـ بالطبع ، كل تصور فيه نفي الموجود الطافح وهدمه .

اعتدل معتذرا في أدب القرود :

ـ التحليل الجدلي امكانية توجيه العمل الثوري توجيها سليما .

واجهته السيدة المهندمة في حدة ، وهي تشير له باصبعها في شبه اتهام .

ـ أنا اعني الحل لما نحن فيه الآن في الواقع .

غمغم بذات الأدب والصوت الخفيض قال :

أجل . الواقع كبناء من المتناقضات .

أدارت له السيدة ظهرها ، وكان قد انسحب الجميع . دخل مكفهرا الى داخل قاعة الاجتماعات .

****

بدا أن الرئيس ونائبته ، انما يتحرشان به ، راوده هذا حين كان مأخوذا يدون احدى الملاحظات عقب تعليق موجزادلـت به زميلة باحثة فنلندية في موضوع او حقل الخزازير والفوازير ، مما اربكه الى حد متابعتها في عداء .

لكن ما أن التقت صدفة عيناه ، بعيني الرئيس ونائبته متقاربي الرأسين ، وعيونهما الأربعة تحط عليه . واهتزازة الرئيس اياها ، التي دفعت ذات مرة بما كتب المغتال ، لان يفض اجتماعه الوزاري رافعا رأسه عاليا الى حيث الكوة النارية في اعلا سقف البهو الملكي ومنها يطل شبح رأس الملك الشرعي الذبيح صارخا بعلو صوته :

ـ لا تهز جدائلك الدامية .

لماذا يرقبانني على هـذا النحو كـما لو كنت المتهم الـوحيد في هـذا الحشد القفصي .

انكب المهاجر من جديد وقد اختلج تنفسه قائلا :

الامر لا يحتاج . ثلاثة جلسـات ارفع فيها اصبعي بأدب ، ثم يدي فذراعي المشمر بكامله في طلب الكلمة ، اية كلمة ، وجهة نظر .

رفع ذراعه عاليا ، بل هو قام واقفا احتجاجا على مرأى من كل المؤتمرين. فنقر الرئيس على طاولته بخنجر نحاسي اعد لتقطيع الورق ،ودون ان يومىءاليهامباشرة .

جلس في مكانه ، دون ان يلحظه احد .

وارتفع صوت باحثة « حزر فزر » فطغى على تساؤلات الحضور من الباحثين

والصحفيين والمراقبيين .

راحت الفنلندية الفاتنة تربط بين الحزازير والالغاز ، وبين طاقات الذكاء الفطري ، لدى الأقدمين وورثتهم ، فهاهي ميكروفونات البث والتلفزيون الملون ، يغرقوننا بفوازيرهم السخيفة خاصة مع تسالي رمضان . ثم هاهي الصحف السيارة لا تبعد بنا كثيرا حتى عن ملغزات جلجاميش ، في مواجهة الاله الاكبر ، سائلا عن الموت قبل الحياة ، متحديا ذلك الاله الأزلي الخالد :

ــ اشمعنى انت اللي خالد .

وذلك بعد أن ظل ذلك البطل الالهي « قلقاميش » في العالم السفلي ، اثنتي عشرة ساعة مضاعفة متجولا في الظلام الدامس ، مقاوما النوم ستة ايام وسبعة ليال ، بحثا عن الخلود او التيقظ .

حتى اذا ما وصل الى عتبات كبير الالهة « اوتونبشتم » متعرضا للكثير من امتحانات الذكاء والحزازير ، منها وضع سبعة ارغفة على رأسه « وان يعجن الرغيف السابع ، ويشكل السادس ، ويبلل الخامس ، ويترك الرابع يختمر ، ويحمر الثالث ، ويشوي الثاني ، ويعد الأول للأكل وهو على رأسه » . غمغم متمخضا :

ــ تعطيل .

من جديد تمددت ذراعه بكاملها ، ومن طرفها تتدلى اصابعه المفكوكة الخمسة ، في وجه الرئيس ونائبته ، بينما التحدي الغشيم يطغى على ملامحه بوجهه الاقرب الى محاولات النحت الحديث ودأبه في تشكيل الفراغ بدلا من الكتلة وترهلها ، تلك الاستطالات الغائرة . تلك العيون اليقظة الندبات . الانف النحيف الدقيق الانسيابي الصقري ، ثم ذلك الأسى المتمثل في زمة فمه ، كمن يمسك عن القول :

ــ أجل الافصاح ، الجنب المريح الذي عليه ننام . نستريح ، ان اعبر عن نفسي مثلكم ، القي بدلوي ، وجهة نظر .

تنبه ساحبا يده السائلة معتدلا في كرسيه مستديرا الى حيث اليد التي امتدت من خلفه منبهة ، ليجد نفسه وجها لوجه مع تلك الفتاة الجنوبية الحنونة الصغيرة ، فتاة راشيا الفخار ، التي مالت على اذنه اليسرى مسرة ، كمن آلمها وضعه ذاك فوجدت له مخرجا هامسة :

ــ اكتب سؤالك وقدمه للرئيس .

شكرها حين انسحبت الفتاة مختفية في كواليس المؤتمر ، وانكب مدونا : الزميل رئيس الندوة الدولية . منذ أمس الأول وانا ارفع لكم يدي بالسؤال وما من مجيب .

الباحث المهاجر لديكم

المذكور

اشار من فوره في تعالٍ إلى أحد موظفي العلاقات العامة بالمؤسسة المعنية بشئون الشرق الأوسط ونكباته المستعصية ودفع له بالورقة المطوية :

ــ للسيد الرئيس .

اخذ الموظف الوريقة ودفع لآخر بها ، دفع بها لما يعقبه الى ان استقرت في يد الرئيس الشارد ، فقرأها وردها من فوره عبر موظفي وموظفات العلاقات العامة بشاراتهم الخضراء التي تعلو صدورهم وتحمل طوطم المؤسسة ومناسبة المؤتمر ، الى ان استقرت من جديد في يده .

اعاد المهاجر قراءتها ، مكتشفا انها ذات الورقة بلا اجابة ، بل حتى سؤاله ذاته الذي سبق له تدوينه بقلم جاف الحبر ، محي تماما من سطحها ، بنفس ما حدث بذهنه هو ذاته لومضة .

من جديد دفع بذراعه العظمية المنتهية باصابعه الخمسة مشهرة في وجه

الرئيس بل الندوة الدولية بكاملها . ولما لم يجد بدا هب واقفا على مرأى من الفتاة المجمدة في كواليس المؤتمر .

وظل هكذا مهتزا عاصفا دون ان يسأل فيه احد ، الى ان اعلنت دقات الرئيس المنذرة ، فانكب جالسا ـ قال :

ــ يبدو انني سأظل هكذا على الدوام ، اقف في الخارج .

تذكر وقفته بعد منتصف الليل في مواجهة العين السحرية مبتسما الى حد التوسل ، وتمنى للمرة الأولى قهوة العالية ، ذلك المغص الكلوي والمعوي الذي لم يبرأ منه لحين انعقاد الندوة .

وتصوره يوما يمكن اضافته مع بقية ايام الاسبوع الاخيرة ، تلك التي يختص كل يوم منها بكوكب او جرم سماوي ويحمل اسمه .

وأدهشه للحظة ربط المحاضرة الفنلندية بين الالغاز وحزازيرها وبين ايام الاسبوع السبعة ، وما يصاحبها عادة من احجبة وملغزات ، تنتهي في الابراج وثقافتها ، وهيافتها ، كسلعة لها خانتها اليوم داخل كل بوتيك وصحيفة سيارة .

اخرجه من احباطه ووقوعه في نكده الذاتي ، عينا فتاة الجنوب الحنونة ، تدفع به من جديد الى معاودة الكتابة والسؤال ـ قال مهمهما :

ــ وجهة نظر .

كتب رقعة جديدة ومررها من يد ليد الى ان استقرت في كفة نائبة الرئيس ، فالتهمتها دون ان تصل يد الرئيس ، وراحت تمضغها مضغا على مرأى من الجميع .

اخفى المهاجر من فوره وجهه الأصفر غائر الجلد الى حد التواري تحت

نتوءات العظام الطولية بين كفتيه المتناسقتين مع وجهه .

ــ فخذا العالية تحت وهج نيرانها .

غمغم مطرقا كفا بكف :

ــ ارحم .

سعل بشدة واضحة ، تصاعد الى حد الدوى عبر ميكرفونات البث والتسجيل من مسموع لبصرى ، وكاد ان يبصق على اوراق زميله العدني الذي دفع اليه بسلة الزبالة خلسة من تحت المنضدة .

تذكر من فوره وجه صول عمان الفحل ، بلا عينين ، ويبصق في منديله مسلطا عيناه المحمرتين من فوره على الرئيس ومرؤوسيه وزبانيته وباحثيه وفتيات علاقاته العامه ، دون ان يتخلى عن ألمه الواضح المرتسم على شفتيه . . منطقة ذقنه الدقيقة ، هزأت رأسه اسفا ، ان لم تكن تشفيا .

أشار بذراعه بكامله عبر الشرفة المواجهة المطلة على البحر بلا صوت حين سمع انفجارا لسرب طائرات يخترق جدار الصوت .

واصل الرئيس دقاته بخنجر الورق عاليا في عصبية ، وواصل هو سعاله دون ان يثير التفاتا يذكر ، سوى من فتاة الجنوب التي تسللت فقاربته مقدمة له كوب شراب ليمون ، شربه فرحا على دقات المنصة الرئاسية .

عبر الشرفة تبدت له رأس الملك الذبيحة ، مواصلة اهتزازاتها ، ودوي الانفجارات والاسلحة المطاردة يطغى صوتها على صوت تلميذة كارل كرون ، الفنلندية ومقاطيعها :

ــ لماذا ايها الرئيس

واصل اهتزازاته المنتظمة مسلطا عينيه في عيني الرئيس غير المكترث ، الذي

كان ساعتها منجذبا ـ بفكره ـ بكامله في احبولات زوجته ومشاحناتها ، رابطا بينها وبين الفنلندية فارعة الجسد .

وحين دوى الانفجار الذي لحق شرفات المبنى انبطح مرتاعا مع المنبطحين .

- ١١ -

حين افاق وجد نفسه في المستشفى ، مع ستة عشر خبيرا وباحثا وثلاث من فتيات العلاقات العامة ، وتلك الصغيرة فتاة الجنوب ، غمغم من فوره :

ــ الرئيس ونائبته .

وسمع حديثا جانبيا بين المرضى والجرحى في اطراف العنبر شاهق الطول شديد الضيق ، الشبيه باسطبل انجليزي الطراز ، طليت جدرانه بلون اصفر لموني ، ومازالت لمبات سقفه المدلاة في اعناقها وسلوكها مشعلة رغم أن الوقت كان ضحى نهار يوم جديد ، قال أحد المرضى :

ــ ان ما حدث كان متوقعا ، نتيجة منطقية في منطقتنا . فالنزال يفضي الى ما نحن فيه .

سمع اوجاعا وتوجعات وسباباً كثيراً ، معيدا تساؤله ، بل هو راح يحرك عينيه مكتشفا ضياع منظاره ، فتكور من فوره باحثا عنه على سريره ، وما تحته وحوله والطاولة وجيوبه بكاملها ، فقدت . تساءل :

ــ الرئيس الباقين .

وضايقه جدا سماعه لتأوهات يعرفها . فتح عينيه عن آخرهما ، ومسحهما بفوطة مستطلعا وجه العالية :

ــ ما معنى هذا .

قال :

ــ ما معناه .

قام من فوره مرضوضا مجرجراً الى الخلف منه ملاءة السرير حافيا ، الى أن قارب سريرها ، فيما قبل منتصف العنبر شاهق الطول ، ضامر العرض ، قاربها ، نائمة تغط كطفلة راضية اقرب الى ان تكون في ضيعتها او حديقة بيتها الريفي ،

منها الى هذا العنبر . تحسس جبهتها عن قرب ، في ذات اللحظة التي قاربت السرير فيها ممرضة ، لامست يدها يده قبل ان تستقر على جبهة العالية النائمة ، انسحب من فوره عائدا الى سريره كمن يطمئن نفسه :

ـ تنفسها طبيعي .

استقر المهاجر على سريره مدخنا في شره . صامتا بلا منظار ، لحين انفتاح اقصى ابواب العنبر ودخول وفد الاطباء وكبار الزائرين يتقدمهم ثلاثة مصورين صحفيين ، راحوا يصورون كبار الزوار وهم يسلمون على المرضى والجرحى ، ويقدمون لهم الزهور الصناعية والشيكولاتا ، والهدايا التذكارية في لطف بالغ والمصورون ينحنون ويتلوون بفلاشاتهم لتغطية كل الزوايا .

ولدهشته اكتشف الرئيس ونائبته في مقدمة الوفد الوزاري الزائر .

ــ هما .

تنبه مادا جذعه الناحل الطويل المنتهي بوجهه واعلى ذقنه المشرئبة ، حين قارب الوزير وكبار الزوار فراش العالية ، والمحاولات الكثيرة التي بذلت من الاطباء والممرضين والسيسترات لايقاظها . بل حتى مصوري الصحف والتلفزيون اخفضوا من اضاءاتهم التي كانت منذ قليل مسلطة كمثل جمر فحم على وجهها الفينيقي البرنزي وسباتها ، وذلك التنفس الهادي الوردي الصادر عبر انفها الطويل القائم كمثل زاوية منفرجة مع سطح الوجه المسترخي الى حد النوم :

ــ تنفسها طبيعي للغاية .

اعتدل جالسا في منتصف سريره ، تسح عيناه رامشة اكثر بلا منظار .

على هذا النحو رمقه الرئيس ونائبته ، حين احاط بفراشه ستة مصورين مسلطين اضاءاتهم . بل ان بعضهم اعتلى سريره بحثا عن زوايا جديدة . وتكوين مبتكر .

وظل هو يرمش في قرفصته ، ضاما ركبتيه الناحلتين بساعديه ، باذلا أقصى

جهده في ان يبدو ثابتا تحت وابل الاضاءات المكثفة والعيون ، خاصة الرئيس والنائبة التي سبقت ان التهمت سؤاله على الورقة قبل ان يقع الدوي المفاجىء بلحظات .

ـ توقيت مريب . عقاب .

قاربه الرئيس دون ان يراه وقدم له منظاره فابتسم من فوره ، ووضعه على عينيه فرحا اكثر مما شجع النائبة البضة على بذل جهد اكبر واشق في التدافع مع المسئولين ومصوري الصحف النشطين الذين اجتذبتهم زوايا جديدة لاعادة تصويره بالمنظار مبتسما فرحا متطلعا الى ما حوله في حالة من الصفاء المحلق نادرة .

لكن ما ازعجه حقا هو محاولته لرد التحيات الكثيرة التي انهالت عليه .

ـ حمد الله على السلامة .

ذلك ان صوته الأجش المبحوح على الدوام لم يخرج اصلا ، ليصل اذناً قريبة منه الى حد ملامسته والتقارب معه داخل « كدر » فوتوغرافي .

مضى معانيا في توضيح حركة شفتيه للرد على كبار الزوار وصغارهم ، لمجرد المجاملة تبادل التحيات .

ـ متشكر قوي . دا كرم منك . سليمه سليمه الهي يهد حيلهم .

بل هو حاول التندر مع الوزير بنطق :

ـ عمر الشقي بقي .

الى حد مقاربته ليصب مزحته هذه في اذنه اليمنى بلا طائل ، ذلك ان الوزير وسكرتيرته الحسناء وطبيب العنبر ، اعادوا المحاولة لسماعه ثلاث مرات ، الوزير السكرتيره ، طبيب العنبر الى ان تقدم منه الرئيس والنائبة في انزعاج قليل لاستيضاح الأمر ، فلعله يتشكى ،حتى ان النائبة قاربته بدورها مهونة واعدة :

ـ سؤالك عندي . في عنيه .

مشيرة الى فمها .

وحاول هو ايضاح الامر اكثر ، لا يشكو مجرد مزحة :

ـ عمر الشقي بقي .

مشيرا معتدلا الى رقبته .

ومن جديد ضاع صوته الأجش ، وطبطبت على ظهره النائبة منسحبة في اثر الوفد المتقدم فظل مستقرا في جلسته ، غير مقدم على التغيير من زاوية قرفصته ذلك ان الركب تحرك من خلف ظهره ، الى ان غمرته اضاءة العنبر الطبيعية بدلا من الفلاشات التي صاحبت تقدم الركب الرسمي .

ظل مثبتا في وضعه ذاك ، ذراعاه تطوقان ركبتيه مبتسما في رضاء جلس متطلعا عبر منظاره المقرب الى الجهة المقابلة ، لحين ان اخرجه من وضعه الساكن ذاك ، الاضاءة التي عادت فغكرت ظهره المقرفص ومنطقة قفاه ومطلع رأسه الأميل الى الاستطالة الرأسية باتجاه جبهته .

أخجله الى حد ، تكثيف الاضاءة التي داخلها الكثير من الوان قوس قزح ، تبعا لحركة الضوء وزواياه ، أنه غطس قليلا في ياقة قميصه، دون ان يستدير مستطلعا الأمر :

ـ ايه اللي بيحصل . . ولو .

خفت الضجة بخروج الوزير وكبار المسئولين من الباب الخلفي وتبعهم الباقون ، بعد أن ادوا دورهم واخذوا الصور التذكارية الصحفية .

حط وجوم اقرب الى السكون ، على العنبر وجرحاه فيما عدا وجه العالية حين تحركت بعيـيها يمنة ويسرة كمن تبحث عن شيء لتراه .

قفز من فوره حافيا مجرجرا ملاءة سريره باتجاه سريرها وهي مسجاة تهمس بلا صوت ، قاربها ، حين انكب مطلا بوجهه الطويل المتندم على الدوام على وجهها ، مكتشفا من فوره انها ليست الاخت الصغرى العالية .

عاد من فوره الى فراشه ، معيدا التروي والتفكير فيما حدث ، ويحدث ماثلا امامه بكامله :

ما معنى هذا . ها أنذا اتحرك ، وليس بي خدش ولا حتى رضوض بسيطة . بل انه حتى ليس هناك ادوية ، او موضع لمطهر ميكروكورم ، اين ؟

راح يتفحص اعضاء ومكونات جسده الناحل العظمي مفرط الطول والتدفق المتلاحق بالحركة والحيوية . تحسس ذراعيه ، منطقة رقبته ، كيعانه ، ساقيه مقدمة سلسلة ظهره اسنانه ركبتيه ، تسمع دقات قلبه ،

ـ أين ؟

ادهشه الى حد كبير ان ليس بجسده بكامله آية آلام ، مركزا انتباهه على موضع آلام بواسيره ، وأزعجه اكثر انها باردة لا تنبض بأدنى ألم .

ـ ماذا جرى .

هب جالسا نصف جلسة قافزا في رشاقة الى احد زوايا فراشه متسائلا :

ـ لماذا انا هنا .

بحث طويلا عن مهرب على طول العنبر ، منتعلا شبشب زنوبة ، متحركا بأقصى حيويته الى حد الركض والجري ، عن تومرجي أو ممرضة دون جدوى .

عاد ثانية الى فراشه مهدودا قليلا . محاولا تذكر ما حدث ، ذلك المؤتمر السيمنار الذي حرم فيه من الادلاء بمجرد وجهة نظر ، لحين دوي جدران المبنى وابتهاجه الذاتي بالانبطاح .

مضى يتلفت هنا وهناك بحثا عن الممرضة ، هب من فوره منتعلا شبشبه أزرق اللون ، سائلا :

ـ تسمح من فضلك . اي حد من ادارة المستشفى .

ـ أجل .

ـ أنا لم أجرح .

مضى المهاجر يكشف للتمرجي ، أو الطبيب ، هو لا يعرف ، ذلك أن محدثه كان يدفع امامه بنقالة مستشفى عليها مريض أو جريح . من يعرف . وكلاهما يضع قناعه على وجهه .

حين تخلي عنه التمرجي ، دافعا امامه بعجلته ومريضه أو جريحه أو عهدته وتركه نهبا لتساؤله ، عاد المهاجر منكسرا قليلا الى فراشه ، وراح يسترجع الأمر بكامله ، بدءا بالرحلة المضنية بكاملها التي بدأها من عند سفح الهرم الاكبر من قرية « كرداسة » وما حولها بحثا عن حواديت القرى فيها قبل المعرفة بالراديو - طبعا لحين اختراق الحواجز وصولا الى هذه المدينة المتأججة بالنيران ، ناهيك عن قهوة الأخت الصغرى ، وصول عمان المرتعد ، والموكب بكامله الذي لم يعنه في قليل أو كثير ، سوى من حيث وصول منظاره اليه . صحيح انه تعرفه منذ ان تسلمه غير مصدق من يد الرئيس ، فما ان تحسس - شنبره - حتى عرف انه ليس منظاره ، لكن ما اراحه وهون الأمر ، هو ارتياحه لحظة اكتشافه بان مقاسات الأحجار هي هي $\frac{٦}{٨٢٠٠}$ للعين اليسرى و $\frac{١٨}{٤٣٨٠}$ لاختها اليمنى . ومن هنا كانت جلسة استرخائه تلك التي تعمد ان تجيء على مرأى من المسئولين والجميع في منتصف الفراش بأقصى دقة ممكنة ، وعلى فمه ابتسامة عريضة ، تسببت فيما حدث من تسابق للمسئولين ومصوري الصحف السيارة ، لتغطية كل الزوايا . الجميع اخذوا معه اكثر من كدر وبوز تذكاري .

أخرجه من تزاحم افكاره تلك ، ضجة عجلات نقالة المستشفى المخلعة العتيقة ، يدفع بها التومرجي الملثم عائدا بعد ان القي بمريضه على فراش اقصى العنبر عائدا .

قفز من فوره اليه معترضا :

ـــ انا هنا ليه ؟

رفع عامل المستشفى قناعه ، أو هو أنزله تحت ذقنه كمن يبذل جهدا مضاعفا واجابه بكلام كثير موجزه أنه . . اي التمورجي لا دخل له يذكر ، أو يمكن أن

يشكل خطرا ، عليه أو على جميع نزلاء هذا العنبر ، وأولهم المهاجر ذاته . وقال ، موجها كلامه للجميع :

ـ ما نحن سوى نزلاء معكم ومعه . فالامر سيان . طالما أنه « عبد المأمور بل ان مأمور المستشفى ذاته ومديره ، له موقع ادنى من رئيسه ، وهي متوالية كما نعرف جميعا لا تنتهي .

وحاول هو بالمقابل ايضا ايضاح الأمر ، وأنه سليم ليس به خدش واحد ، حتى ان آلامه القديمة لم تعد تؤلمه .

راح يقفز هنا وهناك محركا جذعه الأعلى في رشاقة حسده عليها بالفعل عامل المستشفى ، وبعض الجرحى والمرضى ، بل والفتاة المواجهة التي تصورها العالية .

الجميع التقت عيونهم وحطت الى حيث يقف معتليا سريره ووسادات رأسه وبذلته ، كمن يخطب مدويا بلا صوت ، سوى من حشرجات بدت مؤلمة لبعض الجرحى . وبخاصة الفتاة التي هبت منزعجة ، كما لو كانت قد تخلصت من تأثير المورفين المخدر دفعة واحدة على صوته المدوي ، زاحفة بجذعها الأعلى بكامله ، وهي تغطي منطقة اذنيها .

ولاحظ هو حركتها هذه ، فأوصل درجة حشرجاته الصوتية الى اقصى مداها ، مستعينا بعظمية ورشاقة تكوينه الجسدي ، وقدراته البلاغية المؤثرة التي يعرفها عنه الجميع .

لكن يمكن عدم الجزم الدقيق بما تناثر بالفعل من خطابه في مواجهة التمرجي نصف المقنع الذي واجهه عبر نقالة العنبر البيضاء التي خدشت دماء راكبيها بياضها الناصع النقي ، فبدت متسقة بدورها مع كل من العنبر وجرحاه .

أقول لا شيء محدد حول ما تناثر من كلمات المهاجر وهياجه الى حد الخطابة ، الدفاع عن النفس .

ـ انا لست جريحا . لا مكان لي هنا ، طالما اني معافى . وفي مقدروي الكشف عن كل اعضائي :

ـ القلب ساقاي البول السكر الدم . اين .

تساءل بعض الجرحى الذين ساءهم وضعه وهياجه على هذا النحو ، دون مراعاة لراحتهم ، الا ان الفتاة شبيهة العالية ، صرخت من فورها بأعلى صوتها في وجوههم مشيرة الى اذنيها لاطمة :

ـ انا سمعاه . مفيش نقطة دم . سكر .

وواصل هو دفاعه عن وجوده . لكن ليس أبدا وبالمرة هنا . مكاني . حيث اني باحث متخصص .

راح يتوجع قليلا على سريره في مستوى أعلى من التمرجي الغاضب المندهش ونقالته :

ـ ليتني جريح انزف .

استدار مستشهدا بالنزلاء .

ـ مثلكم جميعا . ليتني ، لكنه شرف لا أدعيه . ليس في مقدوري .

صرخ عاليا :

ـ ليكن هذا حالنا .

واستلقى من فوره منحطا في الوضع الممدد الملائم في منتصف فراشه :

ـ تنفسه طبيعي .

انسحب عامل النقالة تحت قناعه ، ولم يعد يسمع سوى صوت عجلاتها بازيزها لحين اغلاقه الباب الاخير المقابل بالمرصاد والكمارات الحديدية الضخمة على هيئة مقص عملاق متعانق .

ساد ذلك النوع من الصمت الذي عادة ما يعقب المشاحنات عالية الصوت .

اما المهاجر المسن ، فقد غطس نهبا لهواجسه التي لا تخلو بحال من آلام جسديه ، خاصة زوره الجاف إلى حد التشقق مما ادى إلى غياب صوته بكامله، في مواجهة الوزير والرئيس والنائبة الملهمة ، حين حاول تخفيف الأمر عليهم ومجرد المداعبة الشائعة ، بأنه سليم معافى .

ـ عمر الشقي بقي .

ومع ذلك اخفق هو من جانبه في ايضاح الأمر ، ان لم يزده سوءا ، الى حد التخوف من الوشاية ، مما ترتب عليه بالقطع تركه على هذا النحو ، وهو الذي لا يحس خدشا في جسده ، وان لم يخلُ الأمر من هبوط عام .

تذكر فيما تذكر ان شيئا اقرب . . حدث له في القاهرة، لم يكن بالدقة ذات الأمر او الوضع ، الذي موجزه الخروج .

صحا ذات نهار ليجد نفسه جالسا القرفصاء على سريرة داخل بدرومه ، وافراد ذلك الجهاز العام بملابسهم المدنية محيطين بالفراش والحمام الملحق ، يفتشون السرير ومرتبته وجيوبه وأعلى الشرفات ، وسيفون الكابينيه والكتب ، وغرفة الكرار الملحقة ، ودواليب الحائط ، وانتهى الامر كالمألوف ، باخذه مع الغسق داخل سيارة « بوكس » وفي احيان شيفرولية وموتوسيكل ومشيا على الاقدام ، بل وظهر حصان ، يختفي سنوات بعدها لحين الافراج عنه ، بكفالة في ثلاثة أحايين غير متابعة .

ـ والآن .

احس بوخز زوره ، غمغم بذات الصوت الأجش المبحوح ، وهو يتطلع ماسحا أعلى حوائطه بعينيه .

صحيح انه لم يكن ذات العنبر ، بسرائره الحديدية والبطاطين رمادية اللون على عادة الميري .

وبدا استياؤه جليا في عيني تلك الفتاة الجنوبية كطفلة صفراء الوجه حنونه ، حين قاربت سريره في جينزها . الأزرق وحديثها المفصح متحسسة جبهته نبضه .

وحين فتح عينيه في عينيها بدت منكسة أكثر خجلا ، سألها اكثر من مرة بلا صوت سوى الفحيح « لماذا هو هنا » ولما لم تجب تصورها جزءا من جهازهم العام .

مرة اخرى فتح عينيه حين راحت تدثره ببطانية وهي تشدها شدا من تحت منطقة وسطه في صعوبة .

كيف يمكن افهامها ، راح يشير الى منطقة زوره .

ــ اللوز .

وحين أومأت اليه فاهمة ، مضى من فوره شارحا الأمر ، مشيرا مرة الى اعضاء جسده الخشبي الممدد ، ومرة الى رأسه ، ومنطقة الحجاب الحاجز وفكيه .

قفز جالسا وهو يقاربها ، سائلا بصعوبة اجهدت الفتاة بقميصها ضارب الزرقة المزين بفراشات ذهبية تغطي منطقة نهديها .

ــ دي مصحة والا مستشفى ؟

وحين اجابته الفتاة بالنفي واصل :

ــ يبقى معتقل .

ضحكت الفتاة وهي تحاول اقناعه بانها مجرد زميلة حيث ان فراشها في أقصى العنبر ونفس صفه ، وانها هي ايضا لحقها الانفجار ، الا انها مثله لم يصبها جرحا ، كل ما هنالك انها استغرقت في النوم ، ولم يوقظها سوى صوته .

قال بصعوبة مشيرا من جديد الى زوره :

ــ صوتي راح .

وسألها ان كانت تسمعه ، فأجابته :

ــ بصعوبة شوية .

اعجبه ابتسامتها التي ذكرته لومضة بحقول مصر الممتدة ، فمضى يشرح لها الأمر كله مستعينا بيديه وذراعيه في ملامسة يديها البضتين البيضاويتين وكتفها وعنقها النافر كمثل حمامة ايك دقيقة حين تنفعل وتتفاعل مع شـرحه للأمر كله، لحين تذكيرها لما تعرض له طيلة ايام السيمـنار ، مذكرا اياها باقتراحها بكتابـة سؤاله وتقديمه للرئيس ، حين التهمته النائبة من فورها قبل ان يصل يده .

ضحكت طويلا ، واشارت اليه باهمية الخروج ، وحين سألها مقاربا هذه المرة وهو يتحسس مفرق شعرها العاجي الأحمر ، اعادت التأكيد بالايجاب .

ــ بلى يمكننا الخروج معا .

ضمها من فوره الى صدره النغظمي ، وقفز مرتديا ملابسه ، بعد ان اقنعته بان هذا العنبر الذي تساقط طلاءه ، ما هو سوى رقم ، أو عربة في قطار ممتد الطول من عنابر مزدحمة تغطي الأفق .

وأدهشه ان الامر لم يستغرق كثيرا ، ليجد الجهة المقابلة ، ويدلفان خارجين الى حديقة الليمون .

حين غمرتها الشمس الساطعة خارج العنبر ، اخفى كل منهما عينيه بكفي يديه . كان الوقت فيما بعد الضحى . الحر لا يطاق وشعر هو بخطأ لارتدائه ملابسه بالكامل حتى الكارفاته حين تصبب عرقا ، كانت في بعض الاحيان تقوم بتجفيفه بمنديل يدها الصغيرة الرخيص ، الى ان جلسا على دكتين متقابلتين في ممشى الحديقة المحاذية للعنبر ، واجهدها المهاجر في معرفة جلية الأمر ، مستشهدا بما حدث في ذلك السيمنار المشئوم ، ولم يخلُ الامر من ذكر امراض الشرق الأوسط المستعصية ، اللا أمن اللاتوازن اسرائيل والضحية الأخيرة لبنان واحبولتها التي لا تبعد كثيرا عن بحث الفنلندية الفاتنة حول الحزازير والفوازير ، لحين وقوع الهجوم المفاجيء ، وتهتك مبنى الأوتيل البحري والانبطاح ارضا ، ووصول سيارات النجدة والاسعاف .

وحين وصل هو في حديثه الى حد زيارة الوزير والمسئولين انكرت هي كلية معرفتها بهذا الامر ، وهي التي لم تصح الا منذ حين .

حاول بصعوبة ، ضاعفت من نزف عرقه مدرارا تذكيرها بالزيارة والفلاشات ، ومداعبته التي عجز عن ايضاحها لحين فرحته بوصول منظاره الطبي حين ناوله له الرئيس ممتنا .

عاوده يأسه فلزم الصمت حين اصرت الفتاة الصغيرة على عدم تواجدها فيما حدث رغم الضجة والطنين وتعللت بالمنوم ، فوافقها مكرها ، وهما يزحفان على طول مقعد بهما في اتجاه معاكس للشمس الحارقة .

هنا وهناك على طول مرمى البصر تراصت العنابر المستطيلة الغارقة في الصمت ، ومن حولها انتشر عمال نقل المرضى والمصابين الجرحى المقنعون يدفعون بنقالاتهم البيضاء في كل اتجاه بشكل منسق للغاية في اقصى الافق البعيد ينتصب

مبنى ادارة المعزل ، بلونه البني القاتم ، وشرفاته الرحبة ، ومن على رأسه ترفرف الأعلام الملونة في حركة عكسية لاسراب الطيور الضخمة العملاقة التي راحت تحلق ضاربة باجنحتها طائرة في اتجاه دائري واحد ، فيما حول القبة العملاقة التي ينتهي بها المبنى المدجج بالحراس والمقاتلين .

نبهته الفتاة الصغيرة ، وهي تأخذ باصبعه بين راحتيها بان لا يشير باصبعه على هذا النحو :

ــ هس .

حاول نزع سبابته من بين يديها، موضحا بأنه لا يعني المبنى الرئاسي لذاته بقدر ما هو يعني الجوارح ، من حداءات ونسور وخفافيش ، وتحليقها على هذا النحو ، ولا شيء يطغى على سمع المكان باكمله سوى اصواتها الجارحة المعدنية الصدى ، تقطع احبال صمت المبنى باكمله .

ــ لابد أن في الأمر وليمة .

أردف :

ــ بشرية .

انفصل كلية فجأة عن الفتاة ، وعاودته زمة شفتيه وهو يتطلع بعينيه في توجس مستطلعا المكان ، الذي اختلط من فوره ـ داخل مخيلته ـ بأماكن لها ذات الصمت الموحش او المتوحش ذاك ، رغم احاطتها بالكثير من المناظر البهيجة المنفتحة الخلابة ، حيث لم يكن الأمر يخلو من شلالات مياه اهرامات مدرجة ، بقايا اصنام هائلة الضخامة تنتصب في الافق الأحمر القاني مع الغروب ، قرى جبلية مطلة على هذا النحو ، نيل وبحار واشلاء غابات ونخيل مفرط الطول .

اما الفتاة فغرقت بدورها في افكارها طويلا ، تذكرت بلدة امها عبلة التي كانت ـ القنيطرة ـ حيث تربت في حضن الجبل وجدتها .

ــ اين .
البلدة ضاعت والجدة ماتت .

مضت تحكي له حكايات لارابط بينها ، عادة ماكانت تختتمها ، بـانها لا تعرف ولا تدري ، وهي تشرح له بسـاعديها الدقيقتين راسـمة شبه دوائر غير مكتملة في فراغ .

وتـذكر هـو من فوره بنـاءات وعوالم ومعمـارية وفـراغات ذلـك المصور الميتافيزيقي السريالي ، دي شيروكو، غمغم ملتاعا :

ــ ياله من يوم .
من جديد عاود احتضانه للفتاة ، مومئا برأسه عاليا الى حيث الطيور المحلقة الضواري ، بجلجلات اصواتها .

ــ احنا هنا ليه ؟
مرقت من حول مبنى الادارة الشاهق البعيد ، سيارتان سوداوان فاخرتان ، تتصدرهما الاعلام الرئاسية . نزل منها ركابها يضحكون متطلعين هنا وهنـاك باتجاه العـابر ، والاسوار الشائكة المسورة للمعزل بكامله وتناثر منهم بضعة كلمات سمعتها الفتاة بدقة ، حين اسرت في أذنه اليسرى مشرئبة :

ــ بيتكلموا عن وباء .
تساءل من فوره :
ــ وباء والا انفجار .
تساءلت :
ــ اسرائيل .

وحين انسحب الضيوف داخلين المبنى الرئاسي ، جاهد هو في أن لا تعاوده الحالة ، سعل طويلا وبصق جانبا دون أدنى تحرج من الفتاة البسيطة الرقيقة ، التي

حاولت مساعدته في ارتباك مما ألم به .

ونجح أيضا هذه المرة في أن يركز اهتمامه المركزي على الجوارح المحومة تحت وهج عين الشمس حول المبنى بأصواتها الجرسية المدوية .

وما أن فتح عينيه معاود التنفس بصعوبة ، حتى أسر لنفسه وللفتاة التي لم تفهم شيئا :

ــ يبدو ان الأمر سيطول . . هاه ؟

تخفف كلا منهما من ملابسه ، وقاما يذرعان مشيا مساحات الظل الضنينة فيما حول أشجار حديقة الليمون وزهور الانترهينم بافواهها المفتوحة على هيئة حيوانات دقيقة صريحة الالوان والعطر .

توقفا في مكانهما حين وصل تحليق الطيور الضواري من فوق مبنى الادارة ، وهي تضرب باجنحتها وأصواتها ، الى حد العنف . . الصراخ .

وامكن للفتاة الصغيرة لحظتها ان تربط بلا خوف ، بين برودة أطرافه حين تحسستها ، وبين ما يحدث .

قال :

ــ أروح فين .

بدا وجهه مفصحاً للفتاة الى حد جلي ، حين ركزت عينيها التركوزيتين الخرزيتين ، على ـ فيزيقيه ـ جسده بكامله ، وهو يزم شفته مستطلعا ما يحدث عبر فراغات المؤسسة التي يغلب عليها اللون الأبيض ، ليس من المنطلق الجمالي ، بل لابد أن الامر هنا متصل بالدرجة الأولى ، يتعذر هروب النزلاء ، الأمن :

ــ أين .

تذكر دفاع التومرجي الملثم في مواجهته :

ــ ما نحن سوى نزلاء مثلكم .

سقط بصره أرضا باتجاه الفتاة المعلقة باطراف أصابعه بعينيها نظرة من تنتظر استطلاع الأمر ، ولما لم يجد كلاما يقوله ، استلقى على النجيل وأعناق الزهور البرية ممددا وقاربته الفتاة جالسة :

ــ وبعدين .

أصوات الجوارح تطغى على كل صوت حتى أزيز عجلات نقالات نقل المصابين الجرحى ، التي تضاعف نشاطها ، مئات من النقالات لكلا المرضى والتومرجية المقنعين :

ــ كل دا .

مضت الفتاة الصغيرة تعبث وهي تتشمم بأنفها الدقيق روائح اليود والصبغات التي اثقلت من « شوب » اليوم وحصار الاسوار الشائكة ، وعواء الجوارح أعلى القبة فوق .

فجأة توقف تومرجي العنبر مفتول الساعدين ، متخليا عن نقالته ومريضه بالقرب منهما ، ساحبا بيديه كمامتين القى بهما اليهما قائلا مهددا :

ــ البسا .

ومن فورها وضعت الفتاة قناعها على وجهها المكفهر ، وساعدته في ارتداء قناعه ، واندفع كل منهما يتأمل الآخر عبر قناعه فترة في توجس ، انسحب على أثرها عامل المستشفى دافعا جريحه الى بعيد .

ولما كان صوت المهاجر قد وصل الى درجة من الانحباس الكلي ، لذا بدى الوضع أكثر صعوبة من حيث التعبير . كيف والأمر برمته اصبح على هذا النحو الضبابي تحت صهد يوم صيفي كهذا وفي منتصف نهاره بالضبط :

ــ جوارح جرحى .

كانت الفتاة دائمة التطلع الى عينيه من اسفل الى اعلا عبر زجاج منظاره الطبي ، على اعتبار انهما الشيء الوحيد المفصح الذي لم يصل اليه القناع ، لذا حاول جاهدا شرح الوضع لها ، وهما في طريق عودتهما الى العنبر ذاكرا ، بان الوضع في مجمله غير طبيعي ، خاصة ما حدث منذ وصوله ، وضراوة الأخت الصغرى الضخمة، كرد فعل طبيعي للاشياء والفراديس المفتقدة ، مضافا اليه نيران المحاور ، الحصن الجماعي . ما الذي تبقى . فها هي حكاياته ، عمله وكاره لم يقاربها منذ مجيئه ولو بمجرد القراءة ، تلك التي اضناه جمعها وتحويشها سنينا ، اين هي منه .

ورغم الكمامة التي تغيب ملامحها فيما عدا عينيها ، فقد تبدت في عينيه تحت وهج الشمس ، وحدة صدى اصوات الجوارح كمثل الهة بحرية ضاحكة متفائلة .

ضحك قليلا ربما للمرة الأولى منذ هروبه ، حين عرف أن ما ابهجها هو ذلك العالم المنقضي لحكايات : موت البجعة وكسارة جوز الهند ، والسمساوية ، والعندليب الحكيم الذي أمسك به ذات مرة رجل مغفل .

قالت :

ـ احكي لي واحدة .

ضحك المهاجر العجوز عاليا عبر قناعه . . كمامته .

بدا كمثل جد عظمي مفرط الطول يلاعب حفيدته .

لاعبها طويلا برغم الكمامتين ، حاكيا لها واحدة مضحكة :

ابن ملك تحت الأرض ، بيحب بنت ملك الارض .

تحركت الفتاة الصغيرة بايقاع ابنة ملك الأرض ، مما اعاد الابتسامة الى شفتيه ، حين واصل متقوسا على نفسه حاكيا بصوته الذبيح في أذن فتاته .

« لقي البنت ماشية في يوم ، في جنينة ابوها ، قرب منها ، البنت سحرت نفسها فرخة . .تكاكي ، تصرخ وتقول يا اولادي . (توقف) .

وابن الملك سحر نفسه ديك وجري وراها في الجنينة . فالبنت انقلبت رمانه ، الديك مضى يلقط حبها الأحمر ماعدا حبة رمان انقلبت حية ، طاردت الديك لحد ما مصته قتلته .

مضيا يضحكان طويلا ويعبثان عبر حديقة مدخل عنبرهما .

وحكى لها مومئا معبرا بجسده الشاهق واطرافه ، كمثل ممثل صولو :

ـ أسد شاخ وضعف وتمارض ورقد في المغاره ، وكل ما يزوره حيوان يفترسه . لكن لما جه الثعلب يزوره ويسلم عليه قال الأسد العجوز :

ـ اتفضل ادخل يا ابا الحصين .

التعلب قاله: ادخل . . بعد كل الضيوف اللي دخلت ومآنسيتك بعد .

واعجبته حكايات الضيوف الثقلاء ، فروى لها واحدة جديدة كانت تعقبها بضحكاتها الصافية .

ـ مرض غزال وجا اصحابه من الوحوش يزورونه ، ياكلوا عشبه وحشيشه ، ولما صحا لم يجد شيئا ، فقال آدي الضيوف وبلاويها .

وبادرته بدورها بحكاية جنوبية :

اصطاد كلب أرنبا ومضى يعضه بقوه ويعود يلحس دمه في حنان . فقال له الأرنب ، تعضني كأنك عدوي وتقبلني كأنك حبيبي .

وبدلا من ان يضحك المهاجر كالعادة عقب كل مأثورة وحكاية فشر ، ابتسم الا ان ابتسامته توارت حين سمعها تهمس في اذنه « حبيبي » الى حد أن عاوده الاكتئاب .

استدار مسرعا كشاب منفصلا عنها .

وحين تمالك نفسه مستديرا باتجاهها ، هاله انها منكسة كمن ارتكبت ذنبا : بل راحت تعبث بعينيها فيما يصل أعلا ركبتها من زهور برية ، من تلك التي لا وطن لها ، وفي معظم الاحيان تتخذ من الأرض المهجورة الصلده منبتا لها ، لتزهو ببراعمها حمراء قانية تتخللها النقاط السوداء الفاحمة .

قطفت ثلاث زهرات برية رشقتها في صدره .

حتى اذا ما دلفا جنبا الى جنب الى داخل العنبر ، بدا وكأنما هما يخطوان على ايقاعات مارش محبب .

تطلعت اليهما معظم عيون المرضى والجرحى . لكن اين هم ، لقد قاموا جميعهم هاجرين سرايرهم ، يتزاورون ويتحلقون في ممشى الطرقة الرئيسية التي تفصل ما بين الاسرة ، يتبادلون اللفائف والبيرة والسفن آب .

وتعرف هو من فوره رغم الكمامات ، على اكثر من باحث زميل . وفتيات العلاقات العامة الثلاث ، وشبيهة العالية بل والعالية واختها حين قدمنا لزيارة النزيلة المشابهة .

انحنى ليسمع تعليق فتاة الجنوب التي كانت ساعتها تضغط يده :

ــ غريبة دول زينا .

قال في حشرجة لم تتفهمها الفتاة :

ـ سلام .

ومن فوره استدار محرضا :

ـ الخروج من هنا . الآن .

وعلا تساؤل النزلاء :

ـ احنا هنا ليه .

الى ان جاء العدوان الصهيوني بالجواب ، لم يبعد عنه . جاء هكذا مستشريا من الباب للطاق ، وان لم يخل الأمر طبعا من مسببات أو تلفيقات بثها راديو العدو ، عن أمن الجليل وسلامته .

أي جليل . الجليل الفلسطيني ، ضد من . . سكانه المطرودين . اذن فلنعاود طردهم .

وكلما تواترت الأخبار بالاجتياح ، كلما هاج المرضى ، داخل العنبر ، وعنابر أخرى لايحدها بصر ، كانت قد بصرت فتاة الجنوب بهذا المهاجر ، الذي واصل تحريضه بالخروج .

الى ان اندفعوا جميعهم خارجين تحت القصف بملابس المستشفى عبر شوارع بيروت المظلمة .

ظل ممسكا بيد الفتاة الجنوبية ، وهما يعبران الشوارع المظلمة التي تطحنها الحرب ، آلاف القنابل العدوانية تدك المدن والجبل ، المخيمات والاحياء المكدسة بالفقراء . من لا مأوى لهم . قالت :

ــ حبالى .

نساء بملابس نومهن وشباشبهن ، يسحبن اطفالهن في حرص ، ورجال يحملون ما امكن انقاذه من بيوتهم وجحورهم التي دكتها القنابل المعادية للفقراء ، اينما وجدوا . . قدموا من امريكا واسرائيل بطائراتهم الفانتوم لقتل هؤلاء الحوامل واطفالهن في بيروت والجنوب والبقاع . زحموا شارع الحمراء ، وما حوله وما تفرع عنه من حارات وجادات .

افترشوا مداخل العمارات والبنايات والحدائق ، وكورنيش البحر والأوتيلات ، واسطح البيوت . والمدارس والمواخير .

بينما تبدت الطائرات المغيرة ، كما لو كانت تتعقبهم اينما رحلوا بصبيانهم وهلعهم المتبدي لتدكهم دكا :

ــ من لا وطن لهم .

المدينة كانت تشتعل بالنيران والشظايا والحرائق . والأنباء تحمل قصف الصهاينة للجمال في لبنان خلدة والشويفات والدامور وعرمون وعاليه :

ــ الفقر والجمال .

ابتسمت له وهي ترفع رأسها عاليا ، وسط الظلام المطبق ، الا أنه واصل طريقه بصعوبة دون ان يتخلى عن العودة الى منطلقه ذلك الذي قدم به من القاهرة لتغرقه احداث بيروت على هذا النحو . قال :

ــ الأمر لا يبعد كثيرا . ذات ما جئت به . الطفح . اجل . باكابورتات

العصور القديمة التي كانت . وهنا على ذات ارض هذا المكان . الأسوار القديمة ، ملايين الأسرى في حجلاتهم ، والقتلى هم ملح الأرض التي على ترابها وصخور جبالها سقطوا .

استوقفته حين ضغطت يده الممسكة بيدها الصغيرة الهشة ، المخيمات التي انتصبت في زوايا الميادين والجراجات من فورها النيران المتوهجة ، الناس وهي تركض طوابير اثر طوابير ، طوفان النيران المتوهجة التي تشعل السماء :

ــ ماذا حدث .

اخترقت الطائرات الاجنبية حواجز الصوت من فوق رأسيهما ، حتى انها ارتمت بالجدار محتمية :

ــ ماذا حدث .

ــ اشعر بدوار .

لحظتها كان دمها قد اسيل من عند مفترق شعرها العسجدي ، دون ان يبدو على وجهها الطفولي الباهت ، اثر الألم . ظلت ترقبه وهو مقرفص بجوار جدار محاولا ، التقاط قطرات الدم بمنديل ورقي ، مبتسمه :

ــ الى هذا الحد .

قالت دون ان يلتقط الكثير مما لفظت به في عصبيه :

ــ أجل . القلب تحمل الكثير . . مثلك . .

وحين اعجبه قدرتها على التحمل ، طالبها من فوره التماسك لحين وصولها الى البيت ، رغم تيقنه من صعوبة مثل هذا الأمر .

ذلك ان الشوارع كانت قد بدأت تغلي بالحركة والمسلحين ودوي القصف المتبادل ما بين الأرض والسماء الملبدة بالغيوم والنيران .

ــ لماذا على هذا النحو يرمون بلاءهم على كاهل مدينة عتيقة مثقلة بالحرب الأهلية التي مزقتها بالمدي والسكاكين على هذا النحو . العدوان ضارب الحصار

والاظافر ، عبر كل منافذها الست ، حتى البحر .

ومن كل مكان تطل تلك النجمة النارية الطوطم :

ــ نجمة داود .

اشارت الى حيث كان يجري الانزال ، لتتلقفه سناكي المقاتلين الفلسطينيين الفقراء ، على مشارف بيروت .

المقاتل الشيوعي والفلسطيني في الدامور وصيدا البطلة منذ الأزل وقلعة الشقيف ، وخلده .

الاشبال على المحاور يتصدون للفاشيست المعضوضين على طول تاريخهم .

مضت ـ دائخة ـ وهي تتطلع اليهم ، شبان في ذات سنها ولكنتها الجنوبية ، التي جاهد المهاجر طويلا في استيضاحها منها ، حين اندفعت قائلة ، كمن تعارك ذاتها بذاتها ، منفعلة :

ــ اجل على هذا النحو ، منذ أن ولدت في احدى قرى صور نفس الشيء ، القصف الاسرائيلي بسبب وبدونه ، وحتى عندما امضيت طفولتي الأولى بالقنيطرة بسوريا . نفس العدوان وحرق الدور ورحيق حياة القرى ، وها انا في بيروت المحاصرة بالعدوان . الى أين .

مال عليها بجذعه الطويل مطمئنا ، وهو يدغدغ اخر اطراف اصابعها ، باطراف اصابعه هو ، وداخله خوف خفي من افتقادها ، تراه فارق السن ، ام الموروثات . ام التبصر :

ــ لعل ما يجمعنا هو افتقاده .

تساءلت :

ــ شو .

قال :

ـ الأمن .

كان يشدها شدا الى حد التوقف عن السير ، وجوه اطفال المهجرين المعدمين على صدور امهاتهم ، حيث افترشن الطوارات ومداخل البنايات والسينمات التي مازالت تعلوها اوضاع « رومي شنيدر » تزحف على بطنها عارية ، بيدها سكين مشهر :

ـ على بطنها تزحف ، وترابا تأكل وتقتات .

وحين صعدا سلالم البناية ذات الطرز البيزنطي حيث يقيم ، أضاءا شمعة لاستكشاف الطريق .

على جانبي السلالم وطرقات البناية ذاتها ، تتراص وفود المهجرين ومن دكت منازلهم الآمنة ، تحت قنابل الصهاينة ، اعداء كل الفقراء وجمال عرمون وعاليه والشويفات وخلده .

وحين اشعلا الشموع عبر المكان ، وصبت هي الشاي ، واصلت حديثها المحتدم العصبي :

ـ والديها المهاجرين . والبيت الذي كلما ذقنا الأمرين في بنائه اعادوا هدمه بالقنابل وراجمات الصواريخ الضالة . مدرستها على طريق مطار بيروت ، التي احترقت مرتين ، واتوبيس المدرسة الذي دمر باطفاله ، ونجت هي والسائق صدفه .

قال :

ـ اجل . صدفه .

أعاد القول لنفسه وهما يعبران ميدانا يغص بالجند ، والمارة عن اخرهم يعلو الاكفهرار الأميل الى الحزن العميق جباههم المحتدمة المتعالية :

ـ صدفه . انها الشيء الوحيد الغائب عما يحدث على ارض هذا الوطن

الصغير المعذب ـ لبنان ـ اين هي فيما يحدث . ان الامر اميل الى المعادلات الرياضية الجافة الى حد الارقام وثقلها ليس غير ، ومنذ الأزل . صحيح ان الأمر لا يعنيني بدرجة كافية ، سوى من حيث الحكايات . كيف اني مجرد جامع لها من افواه عجائز القرى المعدمة ، المتلاشية قسرا وبالضرورة ، مثلما يحدث الآن على ابواب وهامات المدن والدول القديمة : صور صيدا بيروت أمام العدوان الصهيوني ، فما بالنا بالقرى والنجوع .

وعلى هذا فالأمرمتتابع الحلقات منذ الأزل ، هكذا تقول وتصر على القول حكايات القرى وتخاريفها الليلية .

ذلك الاجتياح العدواني الضاري الذي يتصدره الطوطم السلف :
ــ النجمة المسدسة .
أشارت اليها من فورها بيدها القصيرة ، حمراء متوهجة في الافق البعيد تبدت من بين شقوق العمارات وفراغاتها ، كمن تسقط من السماء .

وحين احتواهما الفراش ، بدى الأمر اكثر صعوبة ، ذلك انها راحت تشكو تشكو ، رافعة ذراعها عاليا .

أما يده هو ساعتها فكانت دائمة العبث في الموسى المستقر تحت مخدته . دون معنى . قال مبعدا وجهه عنها :

كان من الواجب ان اكون اكثر دقة . احكاماً . ان ابعده ، حتى لا يؤذيها الامر .

راح يتأمل وجهها الشاحب وعينيها الخرزيتين ، وهي تتخفف من اثقالها ، المطاردة عبر المدن المحاصرة ، حيث لا مهرب سوى الاختباء :
ــ الى اين .
قالت :

ــ هنا .

قام بجذعه الأعلى عن فراشه ، ومضى يتأمل وجهها العصبي الحاد طويلا ، زاما فمه في حنق من سدت عليه جميع المنافذ .

عاودته نقطة بدئه ، حين حزم حقيبته ذات نهار بعد ان ضمنها كتبه وحكاياته ، حاسما الأمر مقررا استيطان هذه المدينة المهترئة بالحرب الأهلية والتصفيات ، معاودا البحث في مخلفاتها ، ويمكن القول نفاياتها بحثا عن منفذ ، أو مكمن لداء عضال يفت في جسدها المريض القابل على الدوام للتلوث .

هذا على الرغم من تيقن المهاجر بان الأمر فيها سيكون احسن حالا واقل حصارا من مثيلاتها العربيات في الحجاز ونجد وصنعاء وقرطاج وعمان والقاهرة .

ذلك ان داءات مثل هذه المدن وامراضها المستعصية ، لها ايضا مستوياتها الأقرب الى الخطر واستفحاله .

هاهو اخيرا على ارض ماكان يظنه فردوسا هلينيا فينقيا ، لمجتمع ثقافي مستنير ، يؤوي الغريب قبل القريب ويحميه .

هنا في هذا الوطن الجبلي الوعر ، المزين بخيرات الأرض وعطائها الموسمي المزدهر .

أجل على أرض اللورد النبيل الذي كان جميلا فعشقته النساء ، أدونيس ـ أدون .

وعاودته حكاياته ـ كاره ـ تلك الممددة اكوامها على طاولة الطعام لم يلمسها منذ نزوحه مهاجرا ، وما حدث على تلال عمان ، حين عاودته النوبة ، التي عادة ما يفجرها الحصار ، ويمكن القول لا متناهية الحصارات التي اعترضته ، بدءا بالرقباء واجهزة القمع في القاهرة ، وبالغيبيين والسماويين والجهلاء ، لحين مجيء

الاكاديميين :

ــ الرئيس ونائبه البدينة التي تقتات بالتهام التساؤل . لماذا .
ضحكت فتاة الجنوب في سذاجة طفلة :
ــ تذكرت النايبه .

عاوده تزمته ، ويمكن القول ذلك التعبير المتندم المتبدي على الدوام في عينيه تحت منظاره ، فمه ، انفه المستطيل ، هزات رأسه :
ــ ماذا جرى .
الدوي يكاد ان يقلب تلك البناية الخرسانية العملاقة كمثل حصن ، تنقصه احصنته وخيوله الغازية .

ــ مازالوا يدكون مخيمات الفقراء .
غمغمت :
ــ عاليه . . عرمون .

تذكرت ما تبقى من اصدقائها الاحياء ، منذ نزحت مهاجرة مع اسرتها من أحدى قرى صور ، مطاردين بالقذف الاسرائيلي وسقوط البنايات القديمة التي احبتها على رؤوس من فيها من امهات وبنات في سنها واطفال .

تذكرت صديقتها الدرزية المتشاحنة دوما مع كل ما يحاوطها ، واختيها وخالتها السريانية :
ــ راحوا .
توالى القذف الى حد تطاير شظايا زجاج الشقة ، مخترقا جسدها نصف العاري ، تحت ملاءة السرير التي غطتها على الفور بقع الدم .
ــ آه .
وفي هذه المرة لم يسأل احد في جرحها الدامي .

بدا المهاجر وفتاة الجنوب تحت ضماداتها ، الصمت ، كما لو كانا ينصتان عن آخرهما الى دوي الطائرات الامريكية المعربدة دون رادع . . حياء في سماء بيروت المقاتلة .

ـ مرضى . . صهاينة .

جاءت الممرضة بوجهها المستكين المتجهم الذي ذكره بوجه العالية ، وراحت من فورها ترفع اربطة الفتاة من حول صدرها الكبير المغطى بالدماء . مضت تدلكها محاولة تخليص لفات القماش الطبي المتجلطة بالدم الأحمر النازف المتجمد ، فيما حول تكورات نهديها النافرين :

ـ آي .

هاله جمال صدرها ، حين هب برأسه عن وسادته ، ومضى يرقبها في فضول لا يخلو من شره :

ـ فاشست .

وحين أحست الممرضة المتجهمة طويلة الوجه ، بما يعتمل في اعماقه ، طمأنته :

ـ إصابة سطحية .

ذكره الدم الأحمر المتجلط فيما حول صدر الفتاة الرحب ، بذلك الشعار الدموي السالف ، لأرجوان فينيقيا الذي تغنت به الالياذة الهومرية .

عاود الاسترخاء بملامسة رأسه لوسادته ، متحسسا ما تحتها بيده اليسرى :

ـ الموسى .

من جديد تلاقت عيونهما الغائرة في ثقب الضمادات البيضاء :

ـ بسيطة .

هزت له رأسها مبتسمة لحظة انسحاب الممرضة المتجهمة ، التي سحبت

شنطتها خارجة ، مغلقة الباب عليهما في عنف صاخب .

من جديد عاودهما الصمت الذي لم يكن يقطعه سوى دوي القنابل التي تطحن احياء الفقراء والمهجرين ، في صبرا وبرج البراجنة وشاتيلاوما حول الجامعة العربية ، ويسمع صداها المدوي عبر الليل والاظلام في شوارع الحمراء :

ـ آي .

كان قد اغفى قليلا ، الا أنه سرعان ما وضع منظاره على عينيه ، مستديرا برأسه صوب الفتاة :

ـ ماذا .

أشارت بيدها الى صدرها :

ـ دم .

هب من فوره حافيا ، الى ان قارب فراشها منحنيا ، بينما اندفعت هي متألمة ، وعلى جبهتها تقاطعت خيوط العرق النازف .

حاول تهدئتها ، مطالبا اياها بالاستسلام للاسترخاء النوم ، الا انها بدت اكثر عصبية :

ـ نار .

اشارت له الى حيث الاربطة ، وحاول هو ملامسة صدرها ، حيث امتلأت خياشيمه بروائحهما الجنسية التي يعرفها ، يخالطها روائح اليود وصبغاته :

ـ نار .

لم يعرف كيف يتصرف بإزاء الفتاة التي تبدت آلامها في انفعالات وجهها ذراعيها وهي تنشج ألما :

ـ نار .

هو يعرف عن الفتاة مدى تحملها . . جلدها ، ابتسامتها الضنينة الشاحبة المبددة لكل ألم وتهافت :

ـ ماذا جرى .

اتكون المرضـة تلك المتجهمة ، غـامضة النـظرات قد تعمـدت أو هي أخطأت . دفن عينيه اكثر فيها بين تكورات نهدي الفتاة الجنوبية ، التي من فورها احاطته بذراعيها مشـددة حصارها حول عنقه ومطلع رأسه جاذبـة ، كمن تنشد ومضة حماية .

حاول هو مرات ان يخفي عينـيه مغمضا عن صدرها المتفجر بالدم ، الذي مضت قطراته تأخذ لها مجرى ، لتعاود الضمادات القطنية رشفها وامتصاصها .

ولما لم يجد له منفذا والفتاةمتألمة تغرز اظافرهاـالمقصوصة ـ في عنقه وقفاه دون وعي ، مد يديه في حذر وراح يمررها محاولا الامساك بطرف الضمادات التي كانت قد تلاصقت حلقاتها من حول الصـدر الطافح بفعل الدم النازف المتجلط .

ــ اوه أوه .

وجد منفذه حين قارب اكثر صدر الفتاة مستعينا بطرف لسانه ويديه الاثنتين في حذر ، كمن يذيب بلعابه دم صديقته الحنونه ، التي مضت من فورها تواصل شهقاتها وتعلقها اكثر بعنقه .

ــ بشـويش .

وحين نجح في حل ضمادات البز الايسـر ، واصل من فوره لعق الدم وما خالطه من اصبـاغ : تلك المرضة الجهمة .

تذكر صفعها المفاجىء بعنف جلي لباب الشقة الخارجي وتذكر انها لم تبادلها حتى التحية ، ولـــم تنطق بشيء .

دوى القصف الشديد للعدوان والحصار ، والسماء الصماء النحاسية تبرق عبر زجاج الشرفات بوهج نيران المقاومة التي غطت كل سماء بيروت .

هنا احتضن الفتاة باقصى عنف ، بينما يده اليسـرى ترفع عن صدرها الثاني

ضماداتها دفعة واحدة ، صرخت لها الفتاة من اعماقها ، مشيرة باقصى توجسها الى البنايات المقابلة عبر الجدار الزجاجي التي لحقتها نيران العدوان فسقطت متهاوية باطفالها ونسائها وعجائزها يطلبن الرحمة بايدهن المتضرعة طلبا للنجدة . الغوث ، وما من مجيب ، سوى اندلاع النيران المتصاعدة التي برقت السنتها مقتربة اكثر ، ذلك انهما احسا وهجها الى حد احتراق جلديهما حتى ان الم الفتاة وصدرها النازف لم يعد ، على عادة ما نعرفه عن الألم ودرجاته ، باسقاط اعلاه الحارق ، لأدناه الدامي .

ــ النار .

احتضنها مبتعدا الى الحافة المقابلة للفراش ، عن ألسنة النيران المندلعة المحاصرة . ودوت الطائرات العدوانية المغيرة ، التي لم تكتفي والتي تواصل حصارها من لا وطن لهم زاحفة على كل فراش ومنفذ .

أوقعها بأقصى رفق عن الفراش ليفترشها ـ موكيت ـ الغرفة ، بينما ألسنة النيران تواصل زحفها الى حد الحصار داخل الغرفة .

ــ الدوي لا يتوقف . والارتجاج يصل جدران البناء ـ الحصني ـ ذاته وحيث يقيم ، الى حد الاحساس الجاثم بجلطة أو هي ومضة التوقف . . الموت :

ــ نهرب .

اجتذبها من يدها وهاله مدى استردادها لحيويتها توازنها الى حد اختطافها لروبها المنزلي ، وشبشبها ولفائفها وكيس نقودها ومفتاح الشقة ، واندفعا جاريين وهما يحتميان بالجدران هنا وهناك ، الى ان تداخلا بصعوبة باناس على شاكلتهما هربا الى حيث جراج البناية او مخبئها عبر السلم الحلزوني الرصاصي الواسع ، وفود اثر وفود ، لا ينقطع لها هبوط وتدافع .

عرف المهاجر البعض منهم ، من سكارى ومومسات مصريات وحبشيات وفتيات بنية اللون قصار القامات من سنغافورة والفليبين وسري لنكا . والتقى فيها

التقى من وجوه ، تكدست في رعب داخل كراج البناية ، بالعالية واختها :

ـ مرحب .

وقبل أن يجيب ، داهمه انحباس صوته ، كما داهم الجمع الحاشد دوي القنابل المهاجمة واتساع رقعة النيران الزاحفة ووهجها اللاسع ، تلك التي ضاعف من وهجها بل ولحاقها وامساكها باطراف الملابس حتى لحقت بكم ردائه المنزلي ، وعرف من فوره انها من نوع النابالم ، حين تقدم منه عسكري لبناني مهاجما ، فخلع كم الجلباب منتزعا من عند الكتف ، محذرا الجميع الذين لحقتهم ذات النيران والشظايا :

ـ نابالم .

لم يعد يحس بوجوده ، ولا بالفتاة المريضة ، محركا جذعه المستطيل تبعا لاندفاع حركة الناس وهم يتكومون في آخر جدران الجراج ، يدفعون بحائطه الخرساني الى ان اسقطوه مواصلين فرارهم عبر منفذ الاحراش الصخرية المواجهة المطلة على البحر ، هنا تراجعت الوفود الفارة بفوهات المدافع المتربصة على طول الشاطىء تصب لهبها :

ـ اين .

حاول التراجع متعثرا ، باحثا هنا وهناك عن الفتاة الجريحة الجنوبية صديقته ، دون جدوى .

تحت القصف المتوالي عبر كل المحاور واصل المهاجر بحثه عن صديقته الجنوبية .

بدأ اولا بزيارة اصدقائها والجيران ، ومسكنها بالمزرعة الذي اقتحمه مهجرون جدد دون طائل .

وفي كل مرة كان يعاود بحثه في الحمراء وحيث كان يقيم ، فيما مشيا فيه معا من شوارع وأزقة ، حتى البناية التي كان يقيم فيها . كانت البناية القديمة العملاقة تموج بسكان وغرباء مثله ، ما بين مقاتلين ومومسات مصريات وشراكسة وامرأة بلجيكية في منتصف العمر محاطة بكلابها وأسر بكاملها تعتلي صور الامام الصدر وجنبلاط مساكنهم وموارنة .

وزاد ذلك الاختلاط وفاض ، حين قدمت جموع المهجرين الذين دكت الطائرات او البارجات بيوتهم ومخيماتهم ، وبخاصة تلك الدبابة التي تفنن الاسرائيليون في تجميع سرقتها من اسلحة فتك ودمار غريبة اخرى من هنا وهناك . - الميركفا - والتي من فورهم اعلنوا عن بيعها وتسويقها معددين قدرتها الخارقة على سفك دم الفقراء واهداره .أولئك المطاردين الذين لا وطن ولا ثمن لهم ، من صبرا وبرج البراجنة والكولا ومنطقة الجامعة العربية والبريد وشاتيلا .

كانوا في تجمعاتهم يواصلون زحفهم من موطن او مسكن لآخر اكثر أمنا ، مما بين احيائهم الشعبية ، والجبل وقرى الجنوب والشمال ، لا شيء يشكل هيئاتهم وملامحهم سوى الفزع والفرار هربا من الجلد ، بل خروجا منه ان امكن .

كانت الناس تحت الحصار ، قد بدأت تعرف بعضها البعض ، سواء وهي تبادل النظرات المستطلعة عبر الشرفات والبلكونات ونواصي الشوارع وشواطىء

البحر ، والمقاهي ، والمخابي وجراجـات السيارات وكمبـونات السـلالم واسطح البنايات والجناين والحدائق العامة .

كان المحاصر منهم يتطلع الى جاره أو جارته ، وجه اسـمر فينيقي أو أوروبي وبخاصة فلسطيني ، يبرز له مرة مطلا غارقا في اوهامه ومخاوفه ، من فجوة شقة أو عبر ستائر أو شباك أو كرسي هزاز .

بينما الطلقات وراجمات الصواريخ تدوي ، ويبرق ضوءها المعدني المذهب ساطعا على السحب منطبعا على الـطبيعة ذاتهـا التي تغيرت سحنتهـا وفضاؤهـا الـلاندسكيبي ، فـاصبحت في بعض الليالي شـديدة القيظ ، اميـل الى البرودة وخلخلات صقيع بيروت الشتوي .

حتى اذا ما اعقب صمت الليل الدامس الخالي من كـل نور وكهـرباء ، الدوي . تبدت المدينة عبر صمتها وجراحها النازفة . اشبه بجسـد عملاق لمريض او جريح مفتوح البطن ، ممثل لعملية جراحية اسرائيلية النهج .

وعلقت بضع سحنات بذهن المهاجر، منها ذلك الكهل الفلـسطيني ، وابنته العايقة التي قتل زوجها منذ اليوم السادس في الدامور ، والذي استوطن احدى شقق البناية المواجهة . ويبدو في كل غروب محملقا كمشدوه في اللاشيء ، ولا شيء او بادرة حركة تصدر عنه سوى ضرب اخماس في اسداس باصابعه العشرة ، كمن افتقد كل شيء . لابد انه فلسطيني .

المطاردات لا تنقطع ، والمدينة تبدو من كل زواياها ومنافذها كمثل سجن ان لم يكن حصنا كبيرا مسـورا بآلات حـرب الغزاة الخواجات الفاشيست .

- ١٨ -

ظل المهاجر موقنا من أنه سيصل يوما الى غايته ومرفئه الآمن ، برغم أن كل ما حوله كان يشي بعكس ذلك ، فالعدوان يستشري عبر اللحظة ومايعقبها،لا شيء يمكن أن يوقفه،يعيده الى صوابه ، لا العالم ولا شعوبه ولا نقاباته ولا رأيه العام أصبح في مقدوره .

الجميع اخفقوا الى حد الفشل . وضعوا اصابعهم في الشق . كل شقوق هذا العالم الذي نعيشه ، ومنها بالطبع الشقوق البشرية ، اللحم الطازج الابيض والاسمر والنحاسي البشري .

لابد أن هذا ما يحدث .

وضع الاصابع في الشقوق خلفا وأماما ، عبر كل التكورات ثم الغشيان . التآمر .

قال :

ـ لعل الأمر لا يبعد بنا هنا تحت القصف والحصار عن « فابيولات » الرؤوس والرمال » .

الاستخباء . الدفن .

وهاهم الناس من حوله أينما حل يتحركون عبر الشوارع والساحات وشواطىء البحر ، بلا طائل . لا مفر .

ماذا يحدث .

تذكر حديث سيدة شابة ، كانت تنتصب في وجهه المنكس حين زارهم ليلا خلسة محاطة باسلحتها من مسدسات وخناجر ورشاشات ، بانتظار لحظة وصول ميليشياتهم والتمشيط :

ـ هاهو السلاح مكانه ، لن احركه . وان حدث ليكن حيث ينبغي

ان يكون في وجوههم المعدنية . .

صرخت في وجهه :

ــ الفاشـــت : اللمامه .

وحين حاول ايضاح الأمر ، وبأنه لا يبغي شيئا سوى الراحة ،لحظة اطمئنان عاودت الصراخ :

ــ هذه المدينة ، كانت يوما تصخب وتشتعل نيرانها ومظاهراتها لاي حدث عربي وغير عربي تافه في العالم ، تتضامن وتعبر عن فرحتها ،مساندتها ، شجبها بالسلاح .

هدأت قليلا وهي تكمل في مرارة :

ــ اين نحن الآن . القصف والدماء ليل نهار ، ولا من يسمع . العرب . العالم .

بصقت :

ــ مؤامرة .

ــ مؤامرة .

هز رأسه خجلا متحسرا :

ــ صحيح اين العالم . ما خارج الحصار . الناس في طرقات المدن . العواصم .

لا شيء سوى القصف الذي التهب من جديد ، وجاء هذه المرة عبر البحر .

سمعت عبر السلم الحلزوني ، دقات ارجل لبنات ثلاث نازلات مسرعات ، عرف فيما بعد انهن بناتها ، حين اندفعن داخلات وهن يعلن خبر وصول المليشيات الغازية للتفتيش :

ــ ماما ماما وصلوا .

ولدهشته حين رأى الام الشابة ثابتة في وضعها فلم يرمش لها جفن ، حتى انه حاول الاقتراب اكثر منها لاستطلاع سبب ثباتها المريب ذاك ، الذي لم يقطعه سوى محاولة كبرى الشقيقات الاقتراب من الأسلحة ، عندئذ انتفضت الأمُّ واقفة بجذعها النحيل شاهرة ذراعها مانعة ابنتها من لمس السلاح :

ــ حذار ـ ربما حذار . كل شيء مكانه واتجهت ناحية باب مدخل الشقة ـ البدروم ـ وفتحته على مصراعيه :

ــ تعالوا .

حين ازدادت ربكته ، تفجر منه العرق مدرارا .

كبت في نفسه رغبة قوية في الانسحاب ، العودة من حيث اتى :

ــ الى اين ؟

ربط بين البنات من جانب، والام في غلها من جانب مقابل، وتقدم منها محاولا من جديد اقناعها بتمشية الحال والتصرف على عادة ما اتبعه الناس في بيروت ، منذ الرحيل الدامي للمقاتلين وخلو الجو لهم ليبيضوا ويصفروا بعد ان اقتحموا المدينة ، عقب رحيل حراسها ومقاتليها وفي اعقابهم فلول القوات المتعددة الجنسيات . فالكل هنا اسلم سلاحه او اخفاه ، أو حتى مجرد التخلص منه بابعاده في الزبالة ، التي شكلت بدروها حصارا لا تقل اخطاره عما يُشكله الغزاة المدججون بأقذر الاسلحة واحدثها ، بدءا بالنيران مرورا بالنيترون والفسفور ، وانتهاءا بالجراثيم والطواعين .

اصبحت الزبالة بدورها تشكل حصارا ، أكواما أكواما في الخرائب والساحات ومفارق الطرق ومداخل البنايات وحتى الحدائق العامة لم تسلم منها .

ظلت عبر ايام الحصار تنمو وتتراكم ، خاصة بعد ان اعلن الغزاة عبر مكبرات الصوت والراديو والمنشورات التي كانت تلقي بها الطائرات من فوق الرؤوس ، بالاستسلام والقاء السلاح .

وبازاء الوضع والتهديد المتواصل ، اخرجت المدينة عبواتها من سلاح ومتفجرات وبارود ، ملقية به في الزبالة والنفايات .

حتى اذا ما لامستها النيران . . بقايا سيكاره اشتعلت من فورها وتفجرت من هنا ومن هناك .

وبذا لم يوقف تفاقم الأمر ، سوى تحذيرات المسئولين عبر الراديو والتلفزيون .

ـ ابعدوا النيران عن الزبالة .

سمعت قرقعات اقدامهم وأسلحتهم الهمجية عالية ، وهم ينزلون سلم البدروم الحلزوني المفضي الى حيث الشقة . وحين اندفعوا داخلين ثبت الجميع في اماكنهم كمثل دمى ، الأم ومن حولها بناتها الثلاث .

وامرأتان من الجيران ، كانتا تلعبان الورق وهما تدخنان وتحتسيان رشفات القهوة الباردة ، تحت وهج شمعدان نحي في ركن الجدار .

وحين دخلوا لم يتعرف سحنتهم احد ذلك انهم صوبوا من فورهم بطارياتهم واسلحتهم ، حتى ان المهاجر ، تخاذل جالسا قليلا على اقرب كنبة ، ثم هب من فوره منتصبا ، دون تيقن ارادي من تصرفه العفوي على هذا النحو . كان مشهدهم مدججين بالظلام ، بشعورهم الطويلة المرسلة وتسلطهم وأسلحتهم من مدافع وخناجر وقنابل .

كفت المرأتان عن اللعب ، ومن فورهما هبتا واقفتين متداخلتين في تساند .

تبادل جميع الموجودين فردا فردا النظرات المريبة إلى حد الكراهية، انحباس التنفس ذاته . الجنود الدخلاء ذوو العيون الزرقاء والخضراء بخوذاتهم وتجهمهم وقنابلهم المتفجرة من حول اجسادهم .

والناس داخل بيتهم . البنات الثلاث ، المرأتان الى بعيد ، المهاجر الضيف في انزوائه يده على جيب بنطلونه لحظة استعداد لاخراج هويته ، حيث تجمدت يده مما لفت نظر احد الجنود الذي ارابه الامر فاندفع مسلطا ضوء بطاريته على عينيه . هنا اخرج الهوية والأوراق مقدما .

الأم في حنقها الدفين ، تتأملهم باقصى شراسة يمكن لعينين ان تفصحا عنها هذه السيدة الرقيقة ذات التقاطيع السمحة والتي كثيرا ما اكل من يديها الحانيتين ، وهي تناقشه في كل شيء حتى حكايات القرى والضياع ولغوها ، الياس ابو شبكه وبودلير والتكافؤ مع الشر .

أية شرور يا لبنان .

هكذا تضرعت السيدة ، في لحظة محاولة احد الجنود لاقتحامها ، استفزازها الى حد محاولة تمرير فوهة بندقيته المشرعة المصوبة الى جيدها النافر كمثل حمامة أيك ، ثم النزول بها الى نهديها وما بينهما في بطء ، مرورا بخصرها وما بين فخذيها .

هنا اختطفت الأم من فورها طبنجة افرغتها في جسده ، في ذات اللحظة التي صوبت عليها المدافع الرشاشة ، لتحيلها الى كومة لحم محترقة امام بناتها الثلاث .

- ١٩ -

كلت قدما المهاجر العجوز تحت القصف المتوالي بحثا عن فتاته الجنوبية التي افتقدها داخل الخندق ، وصدرها النازف بالدم مدرارا . زار جميع مستشفيات بيروت بدءا من شاتيلا والبربير ، وانتهاءا بمستشفيات الهلال والصليب الاحمرين والجامعة الامريكية .

ظل اياما اثر ايام يطوف العنابر ، ويتداخل في الجرحى المنكوبين سائلا . المدينة جميعها تدميها الجروح النازفة ، ممن قطعت ايديهم وسيقانهم ، وخزقت عيونهم وغابت عنهم ملامحهم ، يتحركون على عجلاتهم وعكاكيزهم ، وأذرع التوموجية وذويهم والسيسترات والجدران .

القصف لا يتوانى ، حتى المستشفيات ولحم الجرحى النازف لم يسلم ، وسيارات الاسعاف باجراسها واضاءاتها تمرق عبر الشوارع المظلمة دون انقطاع .

كم يا ترى يصل حجم الجروح والاصابات ، لو انها تراكمت في كفة ميزان - قبان - دون سبب واضح . تعالت ضحكات استلفتت ابصار الجميع وسمعهم . ماذا حدث . منذ مدة طويلة لم تطرق اذنه ضحكة ، قهقهة على هذا النحو . رغم الابتسامات الودودة التي تعلو وجوه الجميع . حتى الجرحى والمشوهين ، لم يغب عنهم حبورهم ، وهم في ضماداتهم ، معلقين على فراشهم موثوقين من ارجلهم وكعوبهم ، كمثل ذبائح .

كانوا يتلقون الزهور ، وعلب الشيكولا مبتسمين وهم موثوقون يئنون في صمت لا يسمع . . المقاتلون . تراها اين ذهبت .

في مستشفى غزه ، مضى يرقبهم داخل عنابرهم ،شبان وشابات طريحون ، يتسامرون في وداعة ، تحت القصف والمطاردة .

الشهداء .
لعلهم الحقيقة الوحيدة فيما يحدث .

فالجميع كانوا قد هاجروا فرارا ، وظلت المدينة تواصل طردها السكاني في اتجاه الضمور والفناء وغياب الحركة بالاضافة الى الحرمان من الماء والضوء والدواء .

الليل موحش ، والعمليات لا تنتهي .
ويبدو الأمر كمثل عقاب .
ذلك الملازم دوما للطرد .

فلول التاكسيات والشاحنات لا يتوقف لها هدير محملة بالمهجرين وأشلاء بيوتهم التي كانت .

وعادة ما تقع مثل هذه الرحلات من بيروت الى الجبل أو شمالا ، مع الفجر ، بسبب الفزع ولا شيء سواه . يا لهامن لحظة أليمة ، تلك المصاحبة للغياب وهذه البيوت وصور الجدران وذكرياتها .

صحيح أنه لم يعانها كما يحدث للآخرين .
فهو حتى لم يأخذ حقيبة يد لمسافر أو هاج . لم يأخذ من شقته حتى ملابسه الداخلية . ترك كل شيء كما هو عقب تهدم بعض اجزاء البناية التي فيها يقيم ، وعنها نزح معظم سكانها .

قال : الأمر لا يستحق .
عرج من فوره على رسام فلسطيني ، لم تخرج موضوعاته ابدا ، عن ذات الموقف . . . الخروج . اناس منكمشون عبر فراغات اللوحة ذات البعدين ، يتحركون تحت احمالهم وازيائهم الفلسطينية ، وحطاتهم شبه مطاردين وكما لو كانوا يبغون الافلات من أسر اللوحة ذاتها ذات البعدين .

جمال وماعز ملون ، وفي أقصى اللاند السكيب ، تتبدى اشلاء لمدن وقرى متفجرة ، نهبا للحرائق ونيران الكبريت والكوبالت .

كان له لحية كثيفة يغلب فيها بياضها على سوادها ، تلمع عيناه شرها لكل ما يمت الى الحياة والاحياء ، رغم رسوماته ذات الدلالة المحددة ، للهجرة والرحيل وخراب البيوت . . الخروج من أسر الجلد .

ما ان فتح له شق باب مسكنه الحديدي متهللا ، حتى اندفع من فوره داخلا عابرا لوحات الهجرة والترحال التي ملأت صالة البيت وفاضت الى الحديقة .

وحين تأمل المنظر ، تذكر من فوره حديقة الليمون قصيرة الشجر الملحقة بعنبر الصحة المعتقل ، فيما قبل العدوان ، والذي لم يخرجه منها متأبطا ذراع فتاته ، سواه . . . العدوان .

جلسا من فورهما يحتسيان البيرة الساخنة متواجهين في شبه الحديقة الفقيرة العارية . ولم يخرج حديثهما بأبعد مما يحدث .

الدم والنار .

تمادى المضيف كثيرا دفاعا عن موضوعه الذي يشغله سنين طويلة منذ تفرغه برسم الاقصر منذ الستينات قائلا وهو يمشط لحيته باظافره في هدوء ، لا اتساق بينه وبين ما يحدث من وهج النيران والدوي ، ذاكرا بأنها القوة الدافعة للتاريخ ، ومنذ الاساطير الهلينية المبكرة ، يتبدى الأمر جليا في حالة ::بروميثيوس وعقابه ، ذلك المقتحم مغتصب النار ، التي بها يصبح بنو البشر أندادا للآلهة ، كما ذكر كبير الآلهة زيوس . الا ان بروميثيوس ـ بعيد النظر ـ كان على وعي تام بعقابه المتمثل في نخر النسر لقلبه على جبل كيقاوس ، لينبت له قلب جديد في صباح اليوم التالي ، يعاود النسر الوحشي التهامه بلا رحمة وبكثير من التأني .

اختتم مصور الرحيل الفلسطيني كلامه عن الدم والنار ، مشيرا لما يحدث

ويبرق عبر سماء المدينة المحاصرة ومحاورها الملتهبة بكليهما مستشهدا .

اما المهاجر فلم يجد عندئذ كلاما يقوله ولو من باب ومدخل اثراء الموضوع المائل للنقاش والممارسة ، مضيفا بان الأمر الجلي ، هو ان لكل شيء مهما ضؤل وانكمش تاريخه ودورة تواجده ، بدءا بالجراثيم وحربها حتى الثدييات ، وزواحف الأرض ، والسماء المنقذة منذ يهوه المحارب حتى نسور جيش الدفاع وطائراتهم القاذفة المحاربة بلا محاربين .

قال :

فما بالنا بالدم والنار .

ابتسم الفنان قائلا :

ـ ها انا اتأهب لرحيلي السادس .

راح يتأمل محتويات بيته عبر باب الحديقة الواطيء .

ـ كل هذا سيذهب ويروح مثل سابقه .

ارتفع مزاحه وقهقهاته طويلا .

ـ نحن لسنا بعيدي النظر . . مثلهم . فلا يجب ابدا ان نعد بيوتا ومآوي وذكريات واشياء من كتب وملابس ولوحات ، بل حتى الحب .

استدار راقصا هازلا :

ـ ما الفائدة . طالما اننا في كل مرة وطرد ، نتركها متخلين .

مضى يجري عبر مسالك الحديقة الضيقة :

ـ اللي في سكتي . . يحلالي .

اندفع يجري ويقذف بلوحاته واوراقه واستكشاته وجرادل نقطه والوانه عبر صالة البيت الضيقة هازلا :

ـ ما الفائدة .

اقتربت اصوات الدوى والمعارك ، محاصرة اكثر ، حتى لم يعودا يسمعان بعضهما ، بعضا . ويبدو أن المصور المرح قال الكثير الذي لم يصل منه سوى متناثرات منها ، أهمية بل حتمية ان يحيا المطارد خفيفا كمثل طائر ذليل الا إنه محلق بلا ممتلكات أو إرث .

وطالب بأهمية التراضي دون ضجر بما نحن فيه .

وحتى عندما صافحه المهاجر مبتسما مودعا اعاد قوله :

ــ ما الفائدة .

كانت الشوارع الصماء غارقة في ظلامها الدامس . ولا شيء ينبيء عن حياة سوى كوميونات المسلحين عند مفارق الطرق . وكانت السيارات المحترقة مكدسة على جانبي الشوارع بكثرة واضحة .

وبدت الدور التي رحل عنها أصحابها خامدة مستسلمة للوحشة التي حطت على جدرانها وكواهلها ، اما ارضيات الشوارع والميادين الفسيحة فقد فرشت بشظايا الزجاج المتطاير من الابواب والنوافذ والشرفات . ولم يعد يسمع سوى القصف المتلاحق عبر البحر والمحاور .

وكثرت بشكل ملفت أفواج الكلاب والقطط الضالة التي اتخذت اصواتها من نباح ومواء ، حدة احالتها الى اكثر ضراوة .

وحين تيقن من أن العدوى أصابته ، تداخل أكثر الى أقرب سور واندفع بدوره يعوى .

أيقظه من اغفاءته أول سرب طائرات مغيرة جاء عبر البحر كالعادة مبكرا جدا مع نسمات الصباح ومطلع يوم جديد من ايام الحصار والعدوان .

تحسس من فوره هويته ، ولدهشته لم يعثر عليها في جيب سرواله الخلفي كما اعتاد على وضعها، بل عثر عليها في جيب سترته الاعلى، ولم يطل تفكيره فيما حدث، ذلك أنه رأى اناسا يجرون مسرعين في اتجاه واحد، فاندفع مجهدا مؤرقا في أثرهم ، لا يعرف له اتجاها بعينه ، رابطا بين قصف الطائرات المغيرة على الاحياء والبيوت التي ما تزال تغط في نومها ، وبين اكداس المنشورات التي لابد وان محتواها كالعادة ، مطالبة البقية الباقية من سكان بيروت بالفرار هربا بالجلد وانقاذا له :

ـ ليخلو الجو لهم .

واصل عدوه مرهقا :

ـ بيضوا واصفروا .

تداخل مع الفارين ، الى حد انه عاد فسبق الكثيرين منهم ، خاصة النساء الثكالى والمسنين والمصابين .

انكفأ مرات على الاسفلت ، حين لوى عنقه لتصدمه الطائرات في اثره تقذف بالحمم، وبدا له الأمر وكأنه في سبق معها، مما احاله إلى حمامة مهيضة، الا أنها اخف حركة من كثيرين .

كتم من فوره رغبة ملحة في الضحك :

ـ منذ ان نزلت قدماي هذه المدينة المثقلة وانا أعدو دون غاية .

غمغم :

لعلني اصبحت مثلهم مهجرا .

ردد متذكرا كلام صديقه الرسام الملتحي :
ما الفائدة .

وايقن بأن هذا اصبح حالنا على ارض هذه البقعة الموبوءة من العالم ، ان نجري كثيرا هربا بالجلد . . ومنه .

لماذا نحن بالذات . ها هي القارات الخمس من حولنا . ها هي افريقيا السوداء .

واعاد اليه الأمر نقطة بدئه وكاره . نفايات القرى ، العوامل المنقضية .

قال :

ــ السباحة المعاكسة .

ــ اللاهدف .

ــ أخيل .

ــ حرث البحر .

مضى يتأمل الوجوه بحثا عنها بوجهها الابيض البريء ، كشاة ضالة .

انضم الكثيرون للموكب ، وتداخلت الاجساد وتقاربت اكثر ، نساء وفتيات واطفال وشيوخ وشبان وامهات يحملن او يجررن اطفالهن الرضع باكيات بالدموع .

ما من حارة او شارع جانبي او زقاق ، لم يلق بدلوه في بحر الموكب الزاحف عدوا بلا هدف واضح او مستقر .

والطائرات في الاعقاب تفرغ حمولاتها من قنابل ودوي وحرائق ، اصبح يحس وهجها الحارق فيتصبب منه العرق .

عصرا يعصر عرق الجبين .

رأى نفسه مجهدا إلى حد مغالبة السقوط ارضا تحت الأقدام الفزعة المروعة .

كان الموكب ساعتها يعبر جاريا من فوق على كوبري علوي يفضي الى ساحة الشهداء التي يعرفها .

تسند بالدربزين الحديدي للكوبري في اعياء واضح ومضى يتلوى بجذعه النحيل فارع الطول ، مجاهدا في السيطرة على تنفسه . . نبضه .

وقبل ان يأخذ راحته الكافية ، راح يعدو في بطء فاكا عنه رباط عنقه ملقيا به . حتى اذا ما انتهى به المقام وحيدا تعبا بعد ان انفض عنه الموكب . اتجه من فوره عابرا الميدان الموحش الفارغ ، الى شق لا يبين في الجدار المواجه ودلف منه صاعدا بضع سلمات حجرية مترية تسدها القاذورات والنفايات الا انه تخطاها ، ليجد نفسه مشرفا على ميدان صغير مسور من جميع جهاته ببعضه مقاه وبارات شعبية فقيرة ، وفي مداخلها تراصت مقاعد قصيرة من القش ، وتمدد السكارى والشمامون متحلقين في ظل الجدران ورطوبة السقف .

انحط من فوره على واحد من تلك المقاهي ، وظل يلهث ويمسح عرقه الغزير ، ويتطلع الى السماء الملتهبة بالنيران والقذائف .

اعاد تأمل الوجوه من حوله ، فوجدها ولدهشته ، غائبة عن عالمها .
اما منكسة تتطلع الى الارض تحت اقدامها ، او مسبلة العيون لا تهزها شاردة أو دوي . ما الخبر ، لماذا الناس هنا على هذا النحو من السكينة وروقان البال ، وكأن الأمر لا يعنيهم في كثير أو قليل .

فحتى اجهزة البث التي ترسل بأخبارها ومارشاتها الدافعة للحماس ، يبدو وكأنها لا تلامس اذانهم ، تساءل : تراهم مستسلمين ام شامتين . سمع احدهم يطرق كفا بكف ، وهو يقعى الى بعيد على صندوق ورنيشه بدلا من كرسي المقهى :

ـ قلناها كثير .

كمل له آخرضاحكا ، وقد بدى صف اسنانه الفضية :

ـ ما بتفرق معاهم .

تساءل :

ـ من ؟

ـ تجار هذا البلد . . اصحاب البنوك والودائع .

وسرعان ما حل الصمت الذي لم يكن يقطعه سوى دوي القذائف ، وأخبار الراديو المزدحم واصوات احجار النرد داخل المقهى .

حلقت طائرتان معاديتان من فوق المكان من حول محيطه ، حتى تيقن من أنهما لا محالة ستفرغان حمولتهما من نابالم وقنابل عنقودية فوق رأسه بالتحديد ، ودون تفكير ثبت بصره عليهما طويلا، تاركا العنان لجذعه الأعلى بكامله راجعا إلى الوراء ، الى حد ملامسة الجدار ، والانبطاح ارضا دفعة واحدة ، حتى انه سقط على اخرين من خلفه موقعا بعض الكراسي والمشروبات وظل هكذا مضطجعا فترة الى ان جاء الدوي والانفجار الى بعيد .

عندئذ تسند جالسا من جديد ، ثم هب بقامته المديدة ، ملقيا نظرة خجلى على الموجودين ، معتذرا مطبطبا على كتف من اوقع بهما :

ـ اعذروني يا اخوتي . اسف جدا .

ولدهشته الكبرى ان الامر بدا عاديا فلم يلق له احد بالا ، وكما لو ان عينا لم تلحظه .

ما الخبر .

انحط جالسا على كرسيه منزويا ، رأسه بين ساعديه ضاغطا .

إلى أن قاربه احدهم باسبرين وكوبة ماء ، فشكره المهاجر ممتنا ، مستعيدا

من جديد ثباته ، ماسحا زجاج منظاره ، حين عاجله الرجل :

ــ انس .

ــ كيف ؟

ــ مثلما نفعل جميعا .

أشار باصابعه الخمسة المرصعة بالخواتم :

ــ الجميع .

وحين تفهم الموقف ، ابتسم في ود الى محدثه مقاربا ، حتى اذا ما جاءت القهوة كان قد اتصل بينهما الود ، مما حدى بالرجل وكان قصيرا ممتليء الحركة ، لأن يضع يده في جيبه مخرجا في قليل من الحذر علبة ـ نشوقه ـ مقدما له جرعة تشممها بمنخاريه عاطسا في البداية .

كان الغروب القاني قد بدأ يزحف .

ولعلها المرة الوحيدة منذ هذا العدوان المروع والحصار التي ينسى فيها فتاته الجنوبية الضالة ، متذكرا من فوره العالية واختها .

جاءته العالية الاخت الصغرى تزحف على اربع عبر الميدان المسور بمقاهي الشامين والزعران ، تبحث عن ماذا . . . فرد وسهما المفقود الذي كان .

أحس من فوره براحة تسري في اعصابه ، بدءا من قدميه العطشين داخل حذائه ، مرورا بساقيه وركبتيه ورأسه .

أصبح المكان الغاص بالرجال اكثر شاعرية . بل لقد انفتحت اكثر من شرفة وبالكون اطلت منها نساء متحررات من معظم ملابسهن .

يبدو انه لم يكن يلحظهن منذ أن دلف الى هنا لاهثا متشويا :

ــ ياه .

أخرج من فوره مائة ليرة متحسسا ، ودسها خلسة مبتسما في جيب محدثه ،

الذي رفض في البداية مصرا على رد المبلغ ، الا انه اصربدوره وعيناه على فتيات الشرفات أعلى بدلا من الطائرات .

وحين رضخ الرجل اللبناني القصير الى القبول قدم اليه من جديد جرعة ضعف سابقتها واكثر من سيجارة وتجددت القهوة السادة ، وصفا الجو .

ويبدو ان اخبار الراديو بدورها جاءت بالجديد المشجع :

ــ هدنة .

ذلك ان التصفيق جاء مدويا من داخل المقهى وبقية المقاهي المواجهة وعربة بائع السجق الساخن وزبائنه ، وتعالت الضحكات والتعليقات .

ــ افراح .

ــ نشم فقط نفسنا .

ــ الهي يهد حيلهم .

ــ عصابات .

ــ ريجن وبيجن .

ــ بيجن وبيجن .

- بيجن وشريكه .

أحس بالجوع المفاجيء عقب الجرعة الثانية ، فهب من فوره مادا الخطى الى بائع السجق وعاد محملا بست سندوتشات وسلاطات ، اقتسمها مع الرجل وجرسون المقهى ، ورجل آخر عجوز يرتدي شرتا ملونا كان قد اوقع به حين انبطاحه .

علت ضحكات نساء الشرفات ، وعرف فيهن فتاة سمراء رقيقة التقاطيع مصرية .

وعرف من صديقه اللبناني ، ان اسمه محمود العريض ، وانه تقلب في عدة

مهن ، منها خباز ، وبائع عرق سوس ، وسمسار ، وصاحب محل فليبرز .

مختتما خبراته ومهنه بانه ايضا صحفي .

قال :

ـ صحفي . أمال .

اما هو ففاض وزاد معه في الحديث ، عن فتاة الصورية المصابة التي اضاعتها الحرب واعياه البحث عنها :

ـ لم اترك مستشفى واحد في بيروت ، شارعاً ساحة تحت القصف ، ولم اعثر لها على أثر .

غمغم محمود :

العدوان . الحرب . اولاد الرمم« خاربين البيوت». اين نذهب ونفلت منهم ومن ظلمهم لا مهرب سوى النسيان .

وعاد يعزم بجرعة جديدة ، فشكره المهاجر ممتنا ، معتذرا بأنه لم يسبق له .

وما ان تتطلع ـ العريض ـ الى ساعته متحينا لحظة انسحابه حتى طالبه المهاجر بايصاله في الطريق الى اقرب فندق ، هنا اشار ـ العريض ـ من فوره الى سيارته « البويك » المستهلكة البلا طلاء وكانت مركونة في اقصى الطرف المقابل للميدان ، حتى اذا ما استقلاها ، وبذل العريض جهودا مضنية في تسخينها وادارة محركها ، اقترح عليه من فوره الاقامة معه بمسكنه الذي يقيم به وحده ، بعد ان رحّل اسرته وابعدها عن الحرب والاخطار . زوجته وبناته الثلاث وأمه المقعدة ، وعمتين دفعة واحدة منذ الشهر الأول للحرب الى دمشق .

فنحن الرجال نحتمل ، اما النساء الحرمات ، فعبء ما بعده عبء في هذه الايام السوداء التي لن تنتهي .

وحين وصل محرك السيارة الى درجة التنقل بتكاسل عبر الظلام الكثيف ثم

الاسراع ، اخبره بان منزله يقع في منطقة اكثر خطورة من الحمـراء وحيـث كان المهاجر يقيـم ، ضحك وهو يتطلع الى الطرقات الخاوية مهونا :

ــ لكن لا يهم فأنا اعـرف كيفية التسلل لبـلا ، ومثلنا مثـل الناس ، في شاتيلا .

ضمغم المهاجر مأخوذا :

ــ شاتيلا .

تواصل القذف بعنف لدرجة ان العريض اطفأ فانوس سيارتـه ـ الخردة ـ فمضت السيارة مندفعة تزحف عبر اكداس الظلام المخيم ، الى أن اشرفا على احد جوانب حديقة الميدان التي احرق العدوان شجرها والتي احالها الفلسطينيون الى مجمع لمقابر شهدائهم . بل حتى الحديقة المقبرة لم تسلم بدورها من القصف والدمار في محاولة الفاشست المعتدين لاعادة تدمير الموتى وحرق عظامهم داخل اكفانهم .

تسللا خارجين من السيارة ، وحين حاول المهاجر غلق بابها امتدت يـد العريض فمنعته وهو يجذبه من يده متسللا عبر اوحال الشارع ومطباته ، ثم استدار به جاذبا الى حيث فتحة غاصة بالنفايات ، انفلتا منها الى داخل المخيم الغـارق لرأسه في الظلام والصمت وروائح البارود والتي يخالطها العطن .

وبحذاء الجدران واصلا تسللهما عبر عدة حارات متعرجة قذرة ، قادتهما في نهاية المطاف ، الى البيت المكون من اربعة طوابق . ما ان دلفا داخلين واشعل العريض قداحته ، حتى أحاطت به ثلة من النساء والصبيان المهجرين تكوموا هنا وهناك فزحموا المدخل والممر المؤدي الى السلم الحجري القذر ،واندفعوا سائلين عما يحدث :

ــ الاسرائيليـون يـزحفون اكـثر هـذه الليلة . المخيم مـطوق من محـاوره الثلاثـة . الخلاص .

تطلع الجميع الى السماء ، حيث تفجرت اضاءات القنابل الفسفورية التي بدأت تسطع صفراء فاقعة مقتربة ، فاضحة كل معالم المخيم ، وهي تقترب اكـثر ليتضاعف وهجها محيلة ليل المكان الدامس الى نهار جلي التفـاصيل ، مما اتاح للمهاجر اعادة تأمل المكان وأناسه ، ونسائه اللائي رحن يغطين وجوههن بكفوفهن متواريات في استسلام ، بينما احاطت الامهات باطفالهن في انتظار ما يحدث ويعقب

عادة مثل هذه القنابل الضوئية المشابهة لشموس بطيئة الحركة تسقط من عليائها فوق الرؤوس مضيئة محاور المكان هدف العملية ، محددة اماكن الثوار والمقاتلين واسلحتهم .

وحاول العريض دون جدوى تذكر، تهدئة الجميع ، باعلان خبر الهدنه الذي سمعه في المقهى مستشهدا بالمهاجر وقبول المقاتلين الفلسطينيين قهرا حفاظا على حياة النساء والاطفال . . الخروج .

عم صمت طويل حشد المهجرين والسكان فمعظمهم فلسطينيون .

اندفع يصعد بضيفه حيث يقيم مستعينا ببقايا شمعة لتجنب اجساد المهجرين الذين زحموا السلالم ومداخل الطوابق الاربعة الى ان وصلا المسكن المكون من غرفتين فسيحتين ، يغلب عليهما الاهمال وضيق ذات اليد .

انحط المهاجر من فوره على فراش غير مرتب ، خالعا عنه حذاءه ، وسرواله :

ــ ايه هدنه .

وحين اغمض عينيه قليلا مستسلما للقذائف المتبادلة التي كانت تمرق مدوية من فوق رأسه ، تساءل :

ــ لو انها ماتت ودفنوها لقضي الأمر .

كانت قد عودته على ان تجيئه ، وبين احضانه وذراعيه العظميتين ، تدفن مخاوفها وتوترها ، بازاء الاشتباكات الملتهبة دوما على طول هذه المدينة :

ــ اين .

مضى المضيف من فوره ، يدفن ويداوي توتره . . هلعه في الاكثار من جرعات الكوكائين واللفائف مغيرا ملابسه ، قافزا ما بين زوايا الشرفة الرحبة المطلة على الميدان ،وبين غرفة نومه متحدثا بصوت مرتفع دون أن يسمعه المهاجر .

قال : بأن الوضع يزداد سوءا ، وينذر بمؤامرة أكثر من الهدنة ، والتقاط الانفاس .

وذكر بان هذا هو حالهم على الدوام منذ الأزل الطعنات من الظهر ، وليتها طعنات ، انها مئات « الهيروشيمات » التي اصبحت تحدث مدوية تحت سمع العالم المتآمر بدوره وبصره .

وبدا معتذرا لضيفه المهاجر ، بأنه ضاعف من اخطاره هذه الليلة ، وان كان لم يعد يجد مهربا منقذا من هذا البلاء الباطش على طول المدينة وعرضها ان لم يكن لبنان بكامله ، بل والشرق الأوسط .

واكثر المهاجر من موافقته :
ــ صح صح . تمام تمام .
وكان ساعتها غائبا بكامله عما يحدث .

يسترجع لحظة تذوق دم صدرها النازف والهلع الآسن في عينيها المعبرتين .
وذكر محمود العريض ، عبر حركته الدؤوب وتوقده بالجرعات كثيرا :
ــ الخروج .
ــ ونحن ؟

عاد ففتح باب الشقة على مصراعيه ، قبل ان تطرقه ثلاث فتيات فلسطينيات يطلبن تسوية قهوة على بوتاجازه ، ومن فوره اختفى معهن داخل المطبخ الضيق .

احتدم نقاشهن الذي لم يكن يخلو من ضحكات صافية :
ــ خروج .
وتصورها لحظة طرد جماعية ، وود لو أنه واصل بحثه ولم يكل .

جاءته احدى الفتيات خلسة ، بهدف الاطمئنان والتسرية عنه ، تزحف على

أربع على بلاط الغرفة ، بيدها لفافتها المشعلة ـ الملفوفة ـ لتقدمها اليه جاثية على اربع :

ـ الاخت الصغرى .

تعارفا حين قدمت له نفسها في بدلتها الجينز الاقرب الى زي المحاربين ، اميل الى القصر والامتلاء واسمها شادية ، مخطوبة لشاب لبناني يدعى بسام .

وبدت قليلا مؤرقة وهي تقاربه ضاحكة لا يروقها الموقف بكامله ، خاصة على هذا المحْور واشارت له الى الجهة المقابلة من الشرفة دون ادراك منه لشيء ، سوى تفهمه لمخاوفها الدفينة على صديقها المقاتل على ذلك المحور وحيث اشارت « بسام » .

ذكرته كثيرا بصديقته من حيث حساسيتها وفروسيتها الدافقة ، حتى ومحاولتها لتقريب حذائه من تحت السرير .

هب من فوره معتدلا مرحبا ، معاودا الانضمام الى الباقين ، الذين تعالت اصواتهم بما يتلاءم والقصف القريب الضاري . ودارت القهوة واللفائف وجرعات العرق اللبناني الساخن ، فلا كهرباء ولا ثلاجات .

اختلطت اصوات الفتيات وتعبيراتهن الساخطة الماجنة الهلعة ، مع اصوات راديو لالتقاط الاخبار ، وتعرف موقع القدم ، التنفيس فيما يحدث من اخطار محيطة مطبقة .

جرت احدى الفتيات الى الشرفة مشيرة الى حيث الانزال ، واشتداد حركة مقاتلي القوات المشتركة في تشبثهم باماكنهم أعلى البنايات المواجهة يسارا ، وخلف متاريس الشوارع ، لا يثنيهم عن موقعهم تقدم صفوف الدبابات المشرفة على التلال المحيطة بالمدينة المحاصرة .

ويبدا القلق اكثر مرتسما على وجه شادية .

تواصل القتال على مرأى منهم ، وتداخل الجميع بعضهم في بعض ، وارتفع ذعر السكان اكثر من فقراء ومطاردي الشعبين اللبناني والفلسطيني في الادوار السفلى . للحظة اقرب الى الومضة . تبدى الأمر له كمثل كابوس جاثم مخيم ، ولا مهرب .

ركض مرات الى الطرقة الخارجية ، وتداخل في المهجرين المتلاصقين في بعضهم البعض ، كجسد واحد ، دم واحد يسري متدفقا في الشرايين ، حتى لم يعد يعرف اللبناني من الفلسطيني .

ــ اما من مفر .

قاربته الفتاة بيدها شمعة ، وحين عاد الى داخل المسكن ، أسلم نفسه للعريض والفتيات متداخلا مفترشا بلاط الشقة وبضعة مخدات قطنية ، تاركا قياده لمهرب ـ العريض ـ بالنسيان والتناسي ضاحكا مع الباقين .

بينما الدوي والحصار يزحف اكثر مطبقا على الجميع ، حين غفا المهاجر نائما ، وعلا غطيطه .

في ضحى اليوم التالي ، على غير موعد ، ودون جهد منه للبحث عنها .

التقيا هكذا داخل احدى غرف عمليات مستشفى شاتيلا الذي لا يبعد عن بيت مضيفه محمود العريض أكثر من حارتين جانبيتين وثلاثة شوارع .

ذلك ان العريض ايقظه من نومه وغفوته التي المت به فجأة ، معلنا في اذنه بأعلى صوته الجهوري مدويا :

ـ قوم قوم . البنت شادية استشهدت .

ـ شادية .

اندفع من فوره جالسا ممسكا برأسه بين كفتيه من اثر الصداع ورطوبة البلاط ، محاولا استرجاع الاسم وملامح تلك الفتاة الفلسطينية في زيها العسكري ومرحها العذب . وذلك الحنان الجارف الذي احاطته به منذ ان التقيا امس ، حتى انه نسي المعارك واوجاعه واستسلم لنوم عميق افاق منه على استشهادها . .

ـ كيف . .

لم يمهله العريض ، بل اندفع من فوره يحضر القهوة حاكيا بصوته العالي وايقاعاته المتلاحقه دون اثر لتندم ، كيف انها صممت وركبت رأسها على ان تلحق بصديقها الشاب اللبناني الذي لم تكن تكف عن الحديث عنه منذ التقيا والذي يرابط مع زملائه مقاتلا على احد محاور المخيم ، دفاعا عنه .

غمغم المهاجر متذكرا :

ـ بسام .

ـ بسام ، وفعلا سحبت سلاحها وظلت تعدو الى ان لحقت به ، ولم يطل الأمر بهما ، حتى جاءنا خبر الاثنين ، اصابتهما معا ونقلهما الى المستشفى القريب . جحيم .

وحين ذكر العريض تأهبه لزيارتها والاستعداد للجناز والدفن لم يجد المهاجر منفذا من اصطحابه ، برغم ان المضيف حاول ثنيه وابقائه في المسكن ومواصلة النوم ، حين احس تهالكه ولونه الشاحب .

مسح وجهه بمنشفة مبللة ، وعدّل من هيئته امام مرآة متربة ، واندفع في اثره ، الى ان اشرفا على الميدان حيث تقع المستشفى ، التي تصدرتها وملأت اروقتها عائلات الجرحى والمصابين والشهداء .

وما ان دلف بنصف جسده داخل غرفة العمليات ، وعيناه على جثمان شاديه المسجاة حين قاربها العريض وهو في اثره ، حتى وجدها في احضانه مقبلة .

في البداية لم يتعرفها تحت قناعها في زيها الابيض ، الى ان قفزت عاليا محتضنة متعلقة بعنقه مقبلة بلا صوت وتشمم روائحها العذرية .

ــ معقول .

ودون ان يعي ما يحدث ، وهو يتأمل فتاته الجنوبية ، في صمتها المتفهم المفصح عن الكثير ، وردائها الابيض ، اندفع نحوه العريض عائدا من فوره مقاربا معلنا انقضاء اجل الفتاة :

ــ ماتت .

ــ شادية .

انسحبوا ثلاثتهم خارجين من عنبر العمليات المشابه لجاراج ، ويدها الدقيقة تعمل في يده ، قدمها الى العريض الذي ابتسم :

ــ شيء مفرح في هذا الغم ان يلمع شيء ، تلتقيا .

عرف منها يأسها بحثا عنه ، الى ان تقدمت متطوعة للعمل بهذا المستشفى مع صديقة اخرى درزية تقيم هنا تدعى ليلى سبق له ان شاهدها معها مرارا .

واخبرها بدوره مسرعا منفعلا متوعكا ما مر به وألم من ظروف منذ تهدم

البناية وسد مدخلها وهج سكانها عنها ذعرا وافتراقها .

قاطعته :

ـ اعرف . ومررت عليها ثلاث مرات آخرها أول الأمس .

ابتسمت :

ـ وبالطبع لم أسأل عنك .

تساءل :

كما هي ؟

ضحكت :

ـ اكثر سوءا . فالشارع بكامله اصبح شبه مهجور ، واصحابها رحلوا الى الجبل والشمال .

قاربه العريض وهو يلكزه منبها لمشهد الفتاة الفلسطينية شاديه وحبيبها اللبناني ، جسديها المسجيين على نقالتين ، وقد احاط اهاليهما رأسيهما بالورود والزهور والصبار ، واحاطوا بالعجلتين حاملين سلاحهما المشهر .

وتقدم العريض من رأس الفتاة مصلحا ، مختلسا نظرة أسية أخيرة من تحت خباء وجهها السمح الطفولي المبتسم دوما .

وعاد كالمذعور فشدد عزاءه للأم الهرمة الثكلى وفتاتي الأمس ، اللتين قاربتا المهاجر مسلمتين في حزنهما ، فقدمهما لصديقته التي رمقته بنظرة فاحصة يعرفها عنها سائلة :

ـ من البنتان ؟

حكى لها مكملا ما ألم به عقب افتقاده لها ولبيته وكتبه ومخطوطاته ، لحين التقائه بالعريض والاقامة عنده ، ثم كيف التقى بفتيات العمارة الثلاث عنده بمسكنه ، لحين استشهاد احداهن .

بدى انها تفهمت الموقف ، خالعة عنها معطف المستشفى ، دافعة برأسها

وخصلات شعرها الذهبية الى الوراء كمثل جواد عربي فتي .

ـ شوب .

ومن فورها رافقت الموكب ، المستعد لرحلة الدفن في حديقة شاتيلا ، التي اصبحت حديقة الشهداء .

كانت الهدنة المزعومة قد استقرت عقب اتصالات ما بين عواصم الشرق الاوسط والامريكتين وغرب اوربا .

الشوارع بدت قليلا مزهوة بأناسها الشاحبين المكدودين من اثر ثقل عدوان الأمس الذي امتد طيلة النهار وحلول المساء بطوله حتى مطلع هذا اليوم التالي ، وغارات الطائرات القاذفة بكل انواع الدمار وحممه ، مضافا اليها البوارج والزوارق البحرية ، ناهيك عن الدبابات والمدرعات ، وقنابل الاضاءة وكل انواع المدفعية لم يتوقف لها عدوان .

بـدا ما تبقى من نساء بيروت ورجالها وهم يروحون ويعدون من امام عتبات بيوتهم او امام المخابز والأفران . متحلقين في طوابير مستكينة للحصول على الخبز والماء وعربات الخضروات والفاكهة ـ البايتة ـ ، والبحث عن شموع الاضاءة والكروسين والدواء ، وهم يتبادلون النظرات والتهاني بالتواجد ـ حتى الآن ـ داخل اجسادهم .

وحين تراصوا متقابلين داخل عربة نقل الموتى السوداء ، جاءت الام والفتيات بفستان العروس المحترقة شادية الأبيض ، ونصبوه قائما في موقع الرأس من تابوتها .

تلمست بيدها الدقيقة ، يده في رقة سرت عبر عظامه والسيارة تمرق بهما الطرقات المفرغة من الناس .

قال العريض :

ـ اعمار .

سالت دموع الفتاتين من رفيقات الشهيدة في صمت ، شمل ايضا ايماءات الام الفلسطينية السمراء ، التي راحت تلطم مقبلة اطراف كفن الابنة :

ـ ظلم ظلم .

تسندت الأم في محاولة منها للوقوف على قدميها والاقتراب من جثمان الابنة المسجى ، في ذات اللحظة التي حاول فيها العريض معاودة اجلاسها على مقعدها ، دون تراجع منها ، انتهى بالعريض الى ان تعنف حركته اكثر ، ذاكرا مرة بان الأمر لا يعدو :

ـ اعمار .

واخرى بان الشهيد ابدا لا يموت . ولا داعي لمزيد من الازعاج .

هنا تبادل جميع المتواجدين داخل سيارة نقل الموتى ، النظرات المتسائلة .

الا ان اصرار العريض على عدم السماح للأم بالاقتراب من الجثة ، اهاج عواطفها اكثر فاكثر :

ـ بنتي . . حبيبتي . . ابوسها .

هنا لكز العريض المهاجر كمن يطلب عونه دافعا بجسد الام الى الوراء .

وغطت الفتاة الجنوبية في ذعر وجهها بكفة يدها ، في ذات اللحظة التي جاشت فيها مشاعر الام الى ابنتها الى حد مقاومتها للعريض وشابين اخرين مسلحين وانتصبت من فورها واقفة منحنية على النعش ، كاشفة في رقة ام تهدهد صغيرتها . . طفلتها ، ولدهشتها . . صرختها لم تجد شيئا سوى خصلة شعر محترقة ، تعلو مطلع جمجمة .

ما أن حلت الهدنة المريبة ، وبدأت دفعات المقاتلين في الترحيل البحري . حتى بدى ما تبقى من سكان بيروت تحت الحصار وفوهات مدافع العدوان ، كمن يستيقظون لتوهم من كابوس جماعي يكتم التنفس ذاته .

بدأت الجموع تأخذ طريقها الى الشوارع ، خاصة الحمراء التي دبت فيها الحياة من جديد ، ففتحت معظم المقاهي والكازينوهات ومحلات الاطعمة الشعبية ومنها اللحم بالعجين ابوابها .

وعادت وجوه الفتيات البيروتيات الرقيقات تزحم الشوارع ونواصيها .

وهن ذات الفتيات المقاتلات ، بزيهن الحربي ، كما انهن ذاتهن اللائي كن يبكرن في كل صباح ويأخذن طرقاتهن الى حيث ميناء بيروت ومرفئها لتوديع المقاتلين الفلسطينيين المغادرين وعائلاتهم ، يلوحون لمن عاشروهم وقاسموهم حياتهم وخبزهم وكدهم اليومي ودافعوا عن مدينتهم وهن ينثرن الزهور والورود من فوق رؤوسهم في زهوة ووعود باللقاء .

وعلى هذا النحو دأبت فتاة الجنوب ورفيقتها الدرزية ، في معظم ايام الخروج العصيبة .

وكم كان المهاجر يحس بالزهو ، حين كانت تعود اليه لتحدثه مختلجة عن هول ما اثاره الموقف من مشاعر ، وما علق بذهنها من حكايات وقصص الغرام الدافق بين اللبنانين والفلسطينين وهي العلاقة المتقدة التي جاء العدوان ليدمرها من جوانب عدة ، تختتم على هذا النحو بالفراق ، وخروج أولئك الرجال المطاردين اينما حلوا ، من لا وطن لهم .

في تلك الايام التي اصبحت تتسم بالحلاوة بعودتها ، وسماعه للهجتها

الجنوبية كمثل نغم ، أو « ميلودية » عذبة تعاشر اسماع سامعها .

فبدأ المهاجر معها يستعيد أمنه وسلامته الذاتية ، بازاء ماعاناه عبر العدوان ولياليه وافتقادها والتشرد ، والهروب المفتعل بالشم والمخدرات مع صديقه اللبناني الجديد طيب القلب ، الذي قاسمه مسكنه مجزلا له الاجر اضعافا في الوقت الذي كان يرفض فيه العريض عن جد اخذ اي شيء ، والاكتفاء باستضافته في تلك المحنة التي حلت بالجميع ، عرب ولبنانيين .

وفي بعض الليالي كانت تزوره صديقته الجنوبية ، لتمضي الليل معه في احضانه في غرفتها المنعزلة الى حد ما عن الغرفة التي اختارها صاحب المسكن لنومه الليلي المتقطع وشخيره العالي المتصل ، ومعاركه مع نفسه عبر كوابيسه الملازمة التي ادعى لكل من حادثه فيها ، بان العتب ليس عليه . بل هي الحرب . ودمارها حتى في النوم والمضاجع .

ودأب هو بدوره ، على زيارة صديقته التي دفعها واجبها الى التطوع لخدمة المصابين والجرحى من الشباب والاشبال بمستشفى هذا المخيم الفقير الذي جمع معدمي الشعبين الفلسطيني واللبناني ومعظمهم ايضا من مهجري الجنوب ، الذين فروا اثر اعتداءات العدو المتسلط المتعاقبة ، واخرها هذا العدوان الذي وصل ذروته بحصار بيروت ذاتها بل واقتحام اطرافها وتقطيعها قطعا على مشهد من اهلها المثقلين .

كان يأخذ طريقه الى المستوصف عبر شوارع شاتيلا وازقتها العفنة ، مستطلعا وجوه الناس البسطاء الذين لم يتخلوا للحظة عن ابتساماتهم البشوشة برغم جسامة المحنة بالعدوان والخطر الداهم المحاوط برا وبحرا وجوا ، في استباحة ما بعدها استباحة تجيء على هذا النحو منذ ما قبل ١٩٤٨ لحين التواجد الفعلي والتباهي بالنجمة الغازية ـ الطوطم ـ المسدسة ، تعلو بفعل وهج القنابل الفسفورية ، وعبر استار الليل الكثيف وانقطاع الكهرباء فوق أعلى معالم المدينة

العاصمة بيروت ، ورموز كرامتها ، دون ادنى استحياء .

رغم ذلك لم يتخل هؤلاء القوم السمحاء عن ابتساماتهم المرحبة ، خاصة للغرباء ، حيث ان السكان هم بدورهم غرباء ، ومن هنا يجيء التعاطف متجانسا لا رياء فيه :

ــ وطن الغرباء .

بل هو تعرف الى الكثيرين منهم رجالا ونساء . تعرف على اسرة شيعية لبنانية ام وخمسة اخوات في سن متتابعة متقاربة ، وجميعهن حتى الأم ، لم يتركن لحظة وداع وتساند مع الخارجين او المطاردين .

وحكت له الأم البشوش الهرمة ، كيفية انقاذها لبناتها واولادها . هربا بالجلد من مجزرة مدينة الخيام الأقرب من متاخمة الحدود الاسرائيلية في الجليل الأعلى حين اجتاحتها المليشيات الاسرائيلية عام ١٩٧٨ ، فقتلت معظم ذكورها عن اخرهم من اباء وجدود واشبال .

كما استمع من مصحح لغة عربية طويل القامة احمر الوجه يدعى عساف قيس ، كيف احالت اسرائيل بلدتهم بكاملها بالقرب من صور ، بعد ان اجبرت سكانها قتلا وتهجيرا على ان يخلفوها مفرغة من كل حياة ، لتقيم فيها القوات الاسرائيلية بروفات حرب حية على الطبيعة لاتقان ـ او اخراج ـ حرب المدن ، بنسف الدور والمدارس والمستشفيات وكل معلم لحضارة وحياة .

لماذا .

كان يحلو له اخر هار ، ومع حلول المساء ، اصطحابها من عند الباب الخارجي المطل على حديقة تفضي الى سلالم المستوصف . حين كانت تمد له ذراعيها الاثنتين القصيرتين ، كمثل عصفور جريح محلق ومن فورها تلقي بنفسها بين احضانه لاثمة مطلع عنقه ، ويمضيان يجوبان الشواره ولهما هيئة أب وابنته . . وحيدته .

يغوصان في اوحال المخيم ، يتطلعان خلسة الى الوجوه المحاصرة في صمتها المطبق كمثل ذبائح الضحية . يعملون : يبيعون ويشترون ويتزاورون ، ويتحلقون حول دكاكين وعربات الاكل والفاكهة وخبز الزعتر . انتظارا لأن تعمل بدورها آلات الحرب الأمريكية القادمة عبر البحر فعلها في لحم اجسادهم وفقرهم « الدقة » كما لو ان الهدف الفعلي هو اندثارهم الفقراء .

كانت كثيرة التساؤل بلا كلمات :

ــ لماذا الأمر على هذا النحو .

اما هو فكان يجيبها ، بانه لا يصدق ، واكثر ما يضايقه هو هذا الأمر ، ان لا تصدق ما ترى وتشهد الى حد الدهشة .

صحيح ان مثل هذا الامر كان من الممكن ان يصادفه عبر حكايات القرى والقول ، حين كان صاحب النجمة المسدسة يحرث اجساد اعدائه الفلسطينيين والاردنيين بالنوارج والباجات ذات اللفافات حصدا جماعيا .

لعله ما يحدث . . او يقاربه فالحصاد هذه المرة يجيء نيرانا ونابالما عبر الزوايا الست او المسدسة . بالاضافة طبعا لمكبرات الصوت والبث ذات اللهجة المهذبة التي تطالب اشلاء سكان هذه المدينة وغيرها بالفرار هربا بالجلد .

ــ الى اين .

الناس لا يكفون عن الفرار ، ان جنوبا او عبر احياء العاصمة وشقوقها واطرافها المقطعة وضواحيها . لا شيء اصبح يمكن ان يرى ، سوى وفود وكوميونات المهجرين ، يسدون كل منفذ ومدخل لبناء او حديقة هامة او واجهة سينما بالحمراء .

وحيث كثيرا ما يأخذان طريقهما اليها لمضيا هكذا متسكعين من طوار لآخر

بلاهدف واحد ، سوى مجرد التطلع الى وجوه وهيئات ما تبقى من احياء وحتى يحين الحين ، بانتظار ما يستجد من ادوار وحصد .

وذات يوم وجدا نفسيهما على مقربة من البناية التي فيها كان يقيم المهاجر ، والتي لحقها القصف الجوي فتهدم طابقها العلوي ومدخلها الذي سد تماما ، فشلت حركتها وعنها رحل سكانها .

مضى يتأمل من داخل الكاراج المهجور الواقع خلف البناية الى حيث مسكنه الذي كان ، كتبه ومخطوطاته وملابسه .

وكم كان حبوره واكباره لفروسيتها حين اخبرته من فورها بانها ستصعد مستعينة بسلم الى بلكون بالطابق الثاني ، ومنه الى ما يليه حيث مسكنه وستلقى اليه خاصة بمخطوطاته التي كان منشغلا بالعمل بها قبل العدوان ، وما يعن له ايضا من اشياء بسيطة .

في البداية وحرصا منه عليها ، حاول ثنيها عن مثل هذا الفعل ، فلا داعي للخطر ويكفي ما نحن فيه .

الا انها اصرت معدلة من كيفية التسلل عبر باب الشرفة ال داخل المسكن بلا مخاوف .

ومن فورها قفزت جارية الى البناية المجاورة ونجحت بمساعدة ناطورها في احضار سلم خشبي ، تسلقته حتى اصبحت داخل المسكن ، وراحت تلقي اليه باوراقه وما وقع عليه اختيارها من ملابسه واشيائه ، ضاحكة ، وهي تمازحه ممتنعة عن احضار بعض الاشياء في عبث بناتي محبب ، الى ان نجحت نازلة :

ــ ها انا قد نجحت . . أنفع . .

وضحكا طويلا وهما يأخذان طريقهما بعد أن ساعدته في حمل معظم اشيائه في حنان ، الى حيث مسكنهما الجديد في شاتيلا .

تساءل المهاجر بين وقت وآخر ، عن ذلك الخيط الخفي غير المرئي الذي يربطها به ، الى حد أن توقف حياتها عليه وأن تتخلى عن مصاحبتها لأهلها الذين رحلوا الى مهجرهم بالبرازيل ، منذ الساعات الأولى للعدوان ، بينما تخلفت هي - مصرة على عدم ترك البلد للمعتدين ، اذ أن هذا بالتحديد هو هدفهم ، كما سبق لهم فعله في فلسطين ، نشر الذعر والفزع واعادة استثمارهما في ترحيل السكان وهجرتهم الى حيث لا رجعة :

ــ لن أرحل .

وهكذا بقيت قاصرة طاقتها على العمل بالمستشفى تكنس وتنظف وتسهر على رعاية المصابين ، لتعود اخر اليوم لترعاه ، تقرأ له وتنصت الساعات الطوال ، وتصنع له قهوته السادة وطعامه ، وتحمل الماء والصحف وخبز المستشفى « الجراية » .

ما الذي يشدها اليه . انه لا يستطيع ابدا الادعاء بانها على دراية بدوره الفكري فكيف يصلها منهجه في علمنة الثقافة. وعلوم الاثنوجرفي والانثروبولجي وجدلية ما يحدث بعامه ، ثم ماضرورة مثل هذا الآن في - جحيم - ما يحدث وتلحقهمانيرانه ووهجه الحارق . اسئلة ظل يطرحها دون اجابة ، منذ ذلك السيمنار الذي انتهى بالانفجار والمصحة المعتقل معا ، لحين مجيء العدوان بدءا من الجنوب مستشريا عبر كل المحاور ، لحين القتال والصمود ، وقبول الخروج والرحيل ، ووصول القوات المتعددة الجنسيات .

تذكر وعوده المتكررة لها بالسفر والترحال لرؤية أكبر حيز ممكن من هذا العالم وتضاعف هذا الحلم وكبر أكثر مع حلول العدوان والحرب . ما الذي يشدها اليه . اتراه افتقاد الأب . على عادة ما يحدث بالنسبة لمثل هذه الحالات . أم تراه الخطر ،

تلك الجاذبية الخفية - اللامرئية - التي جاء به من وطنه هاجا الى هذا البلد الصغير الغارق لقمة رأسه في بحاره الآسنة .

بل ان تساؤلاته اوصلته الى حد محاولة الامساك بتلك الصدفة التي دفعت بكليهما الى المجيء اصلا الى هذا الحي الفقير المضطرب دوما بمعدمي الشعبين الفلسطيني واللبناني ، ان لم يكن كل الفقراء . من لا وطن لهم . ذات ليلة سألها ان كانت تستشعر بحق مدى الاخطار المحيطة ، وان كانت تفضل الرحيل والبحث عن مسكن أو مأوى اخر اكثر أمنا ، قالت :

ــ اين .

واردفت بأن الخطر هنا ، كما هو بكل احياء بيروت . لا فرق يذكر بين المسكن والخندق والشارع طالما انهم اصبحوا يتعمدون ضرب المخابيء ذاتها ، ومدافعهم تطول كل شق في بيروت الغربية الوطنية .

وتعللت بارتباطها بزميلتها الدرزية ، والمستشفى القريب الذي تعملان به، واقامة جسور الاتصال والتعارف بالجرحى والمصابين حتى الاطفال ، ومن غيبت الحرب وجوههم الى حد البشاعة .

ــ كيف اتخلى عنهم .

قالت :

ــ كيف اتخلى عن صديقتك الفتاة الفلسطينية شادية ، التي جاءوا بها ورفيقها اللبناني فجرا ، كتلة لحم بلا وجه ، سوى من بقايا نبض ضنين ، واحسست بها وهي مسجاة ، تحملق بي متعلقة باحد ذراعيها بمؤخرة عنقي هذا ضاغطة . الى ان توقف نبضها ، وسرت البرودة من قبضتها خلف عنقي ، الى عنقي ذاته وبقية جسدي واطرافي .

وكيف .

لا أحد يعرف ، بل هو نفسه المهاجر لم يعد يدري . ففيما يتصل بنفسه يستوي الأمر . فهو لم يتخل للحظة عن سلاحه ، صحيح أنه غير كاف ، ولا يستوي مع اسلحة العدوان من نابالم وقنابل أنشطارية وأوبئة ، ذلك ان سلاحه مجرد سكين (قرن غزال) أو موسى الا انه كاف في كل الحالات واضيقها لقتلة او انتحاره بازهاق نفسه ، وقتما أراد .

وقليلا ما حادثها في هذا ، حين تحسسته تحت وسادته ـ الموسى ـ ذات ليلة ، ولمسته سائلة :

ـ لماذا الاحتفاظ به هنا .

تردد في البداية ، حول كيفية اخبارها ، الا أنه ألمح لها بحقيقة الأمر ، كيف ان لكل انسان مأزقه واختياره لتوقيت فك وثاقه وغيابه .

ساد الصمت بينهما للحظة كان من الممكن أن تطول جدا . ذلك أنها قامت مبتعدة عن الفراش ، واندفعت تتأمل وجهها وجسدها نصف العارى بملابسها الداخلية ، ثم اتجهت الى المرآة المواجهة لباب مدخل المسكن ، وتناولت لفة زهور ـ الأوركيدا ـ التي كانت قد جاءت بها اليه ، ومضت في ذات الصمت توزع الزهور وتنسقها في فازات البيت الى أن عادت اليه ، فاشعلت لفافة وانحنت على ذراعه فلثمتها قائلة :

ـ طبعا الانتحار حل مطروح .

وجاهد هو ساعتها في تغيير الموضوع الماثل للحديث ، معيدا الموسى الى مكانه ، وهب في فوره منشغلا معها ومساعدتها في تنظيف حوض غسيل المطبخ واعداد القهوة .

ولعلها كانت اللحظة المحددة التي مست فيها قلبه ـ الشائخ ـ فاحبها .

جاءهما صاحب المسكن محمود العريض فزعا مروعا الى حد أنه كسر مزلاج باب المسكن الخارجي معلنا أن الاسرائيلين - الجزم - لم يكتفوا بما فعلوه بلبنان ، فاغتالوا الرئيس المنتخب بشير الجميل وكبار جنرالات ميلشياته ، في ذات التوقيت الذي أعلن فيه تأهبه لافتتاح جسر فؤاد شهاب أو جسر الاتصال بين العاصمتين ، بيروت الغربية والشرقية . اذ كيف يتوحد لبنان وتلتئم لحمته ، وهم لا يريدون له سوى التمزق ، عزل اللحم عن اللحم . تساءل ثلاثتهم ولعلهم اتفقوا :

ــ لازم يعملوا حاجة .

ــ يدخلون بيروت الوطنية، بعد رحيل المقاتلين الفلسطينين الذين اوقفوهم وصدوا عدوانهم بحجة تمشيطها ، ويعملون مذابحهم .

هبت من فورها عن فراشها مؤكدة في صمتها العظيم :

ــ هنا .

ــ ما العمل .

اجاب العريض ، وهو يتحرك بشكل مكوكي لا ارادي ، يأكل في نهم ويحتسي البيرة ويحشو منخاريه ويعطس بحدة .

ــ هنا مثل هناك . . لا مهرب .

تلاقت عيونهم في ذات اللحظة التي واجهت هي فيها المرآة بذات الصمت .

اعلن الراديو اغتيال الرئيس والحداد .

قال العريض :

ــ حداد . أي حداد . ما نحن فيه منذ شهور وحدنا تحت سمع وبصر العالم . . الخول .

قبلته ضاحكة وبدورها قبلت العريض :
ــ موعدي . عندي شفت الليلة .
ــ الليلة .

ود لو انه قفز اليها معترضا هذه المرة معلنا هواجسه ، ما يعتمل في داخله ، ولا يعرف كيف يمكن ان يعبر عنه ، يفصح عنه :

ــ بنتي .

انتفض واقفا مجاهدا في ان لا يبدو منحنيا ، واندفع يلثمها في كل ما هو عــار من جسدها جاثيا على ركبتيه ، حتى ملابسها بنطلونها الجينز القديم ، اذنيها عينيها سوارها الذهبي .

تجسدت له كلبنان . .
ارزة قصيرة في مقدور اي رياح معتدلة اقتلاعها .

اما هي فمضت تلحس حواف فمها غير مستوعبة ما يحدث ، على عادة الضحايا . بل هي اعادت ايقافه على قدميه منتصبا وتأملته لحظة .

وجاءت الاخبار كالعادة سابقة لكل توقعات قبل حلول المساء الدامي في شاتيلا .

غمغم لنفسه :
ــ الليلة تباع الرؤوس بيع السماح .
تذكر كليب الفلسطيني ملك العرب .
اذاع راديو محمود العريض الترانزيستور ـ المتآمر ـ سلسلة من الأخبار ، التي جاءت كمثل جلد على بطن عــار .

واندفعت الفتاتان الفلسطينيتان ، اللتان اختفى مرحهما العربيد في اعتى

ساعات المحنة عقب استشهاد رفيقتهما الثالثة شادية ، داخلتين محملتين باخبار جديدة :

ــ لا قدم واحدة في الشوارع . مخلوق . سوى الكلاب الضالة المسعورة .

اندفعوا جميعهم خارجين مسرعين وفي اعقابهم المهاجر ـ المصري ـ نازلين السلالم متداخلين في الاجساد الكثيرة التي زحمت السلالم وما تحتها وطرقات البناية ،وقد عمهم الصمت ، فتحولوا جميعهم من رجال ونساء وصبيان ، الى عيون مفتوحة عن آخرها ، تعمل فيها حولها من فراغ نصف مظلم ، اما الآذان والحلوق ، فلا عمل لها ، لا كلمات ، ولا سماع لأناشيد الراديو الحماسية التي تبث غنائياتها عن لبنان :

ــ احبك يا لبنان .

يا وطني احبك .

ثم سيول الاخبار المميتة حتى العظم ، للتهديدات الاسرائيلية لجيش الدفاع ضد من ، هؤلاء الناس ، والاطفال الرضع . خرجوا اربعتهم الى الشوارع التي غطاها الصمت المترقب . لا سيارات ولا بشر ما عدا الكلاب التي تزايد سعارها ، في عراك ضار حول اكوام الزبالة وصناديقها وروائحها .

ظلوا يمشون في ظل الحواري ميتة الحركة ، ومنها الى الشوارع ، الى أن قاربوا مبنى المستشفى التي تبدت وحيدة بيضاء ، تنبض فيها بقية حياة ، حيث تكوم الأهالي هنا وهناك ، وزحموا حديقتها قصيرة الشجر العارية .

مرق سرب من الطائرات الاسرع من الصوت وعليها ثبتت كل العيون عاليا .

وكان قد انفصل عن العريض وفتاتيه الفلسطينتين متخذا خطاه وحده باتجاه المستشفى .

القى السلام على الجرحى واهاليهم ، وصافح احدهم ، مندفعا صاعدا السلالم المفضية إلى داخل عنبر الجرحى .

وما ان التقيا ، حتى اسرعت اليه ملقية بنفسها بين ذراعيه ، على مرأى من الجرحى والمصابين ، الذين ركزوا ابصارهم الكليلة عليها .

ـ ماذا يحدث .

ازاحت قناعها عن وجهها النضر المبتسم :

ـ لماذا جئت .

افضي اليها بما يختنق به هذه الليلة :

ـ هذه الليلة الليلاء .

دعيني أتأملك .

قدمت الفتاتان مسلمتين عليها ، وفي اعقابهما العريض .

ـ ما الاخبار .

ـ يزحفون اكثر باتجاه بيروت ، بمدرعاتهم ودباباتهم .

صرخ احد المقاتلين الجرحى ، دفعة واحدة على صوته من خلفهم :

ـ تعالوا .

ـ وبدا كما لوكان يهب لتوه من نومه او هو يجاهد في ان يهب واقفا باحثا عن سلاحه :

ـ خونه .

ـ انسلت هي من بينهم منزلة من جديد قناعها على وجهها جارية اليه مسندة مهدئة ، معبرة بذراعيها المفتوحتين ، وصدرها الرحب العريض وإيماءاتها بكاملها ، خاصة تلك الابتسامة الحانية التي كانت ـ تفتق ـ الخباء او القناع عن وجهها .

اخذته في صدرها ضامة معيدة رأسه المقاتل الشبل على نهديها الحانيين الى

وسادته ليعاود النوم من فوره كمثل طفل بين ذراعي امه :

ــ بيتقدموا صوبنا .

صرخ العريض بدوره مهتاجا ، وهو يتراجع عن الشرفة المطلة على التلال القريبة . كان المساء قد بدأ يحط جاثما :

العدو يزحف . . يقترب .

سمعت الطلقات المدوية تجيء من كل الاتجاهات الأربعة المسورة للمخيم فترة .

وبدي الترقب الشديد ، على وجوه الجرحى والمصابين الذين قاموا جميعهم عن مضاجعهم في تحفز ، بل ان البعض منهم تحامل ممسكا بسلاحه .

انفتح الباب على مصراعيه ، حيث قدم اهالي المصابين ذووهم ، فلم يعرف من يحتمى بالآخر ، سوى ان الامهات قاربت اكثر ابنائهن وبناتهن .

ــ مهرب . . مغيث .

النيران القريبة تواصل حصارها ، حيث تساقطت المباني ، وارتفعت الحرائق والتهب الجو بكامله ، فتحول الفراغ الى كتلة متوهجة من نار تسد كل منفذ وأفق .

قاربته أكثر وهو يتداخل في الاجساد المندفعة التي راحت تتقارب وتتلاصق ، حتى ان الجرحى قاموا بدورهم عن سرائرهم وتلاصقت الاجساد اكثر فاكثر ، الى ان اصبحت كتلة واحدة .قابلة على الدوام للاستزادة بقدوم بقية المرضى والممرضين والاطباء .

وتحول الليل ، إلى نهار بفعل القنابل الفسفورية التي تفجرت في السماء كاشفة كل ارجاء المعسكر وتفاصيله ، بل ان تفاصيل الجنود المعتدين ،

بآلات حربهم التي تبدت أكثر شيطانية ووضوحا وهم ينسفون البنايات المحيطة التي نزل عنها سكانها ، متلاصقين على ذات النحو ، كمثل جسد واحد ، يتعذر انفكاكه ، لحين أن تحصدهم النيران فيسقطوا على ذات الوضع المتلاحم كتلة صماء واحدة . . جثة .

حاول محمود العريض ، وهو يتداخل أكثر في الفتاتين وبقية الموجودين ، التنبيه لما يحدث ، صوت مكبرات الصوت العالية التي لا يصل صوتها بفعل القذف المتواصل والانفجارات وصرخات اهالي المخيم الذي تحول بكامله الى كتلة من النيران الزاحفة دون أن يسمع شيئا .

كان المعتدون يصعدون البنايات المحيطة والمواجهة بايديهم مدافعهم وقنابلهم ، بل وسيوفهم وخناجرهم التي تقطر دما ، بفعل وهج القنابل الفسفورية :

ــ مذبحة .

احاط بالمستشفى كتيبة كاملة من الجنود ، وبدوا وهم اكثر قربا مقنعين ، لا يبين من وجوههم المتحفزة للقتل والتمثيل بالجثث ، لتغيب ملامحها ، سوى عيونهم الغريبة الملونة .

صرح احدهم بالعربية :

ـ العواجيز هنا .

هنا اندفع الجميع جريا ينزلون السلالم . الا ان بقية الجنود المهاجمين ، تفرسوهم مسرعين، معيدين الجميع ، فيما عداه ـ المهاجر ـ وفي اثره العريض الذي بدا للحظة مهدما لا يقوى حتى على الوقوف .

وقبل أن يستدير المهاجر ، كانت النيران قد حصدت الجميع من ثلاثة اتجاهات ، حيث سقطوامن أعلى السلالم كتلة واحدة .

وتقدم الباقون بايديهم سلاحهم الابيض فمضوا من فورهم يجزون الرؤوس . احس بان عينيها كانتا تحطان عليه ، وهو يركض هلعا عبر الاستار ، وأحد الجنود يمزع بطنها عرضا :

ـ ابنتي .

ظل المهاجر ورفيقه اللبناني يجرون عبر استار الليل الكثيف ، وانضم اليهما بعض الراكضين والهاربين ، الى ان خرجوا من أسر المذبحة . . شاتيلا .

- ٢٦ -

كان ما يزال نائما على مقعده . رأسه الى الوراء وغطيطه المتقطع غير المنتظم يثير الركاب .

حين اعلنت مضيفة الطائرة الوصول بسلام الى مطار القاهرة :

ـ سلام .

وداخل ردهة الوصول بالمطار ، تمثل المنظر داخل مطار القاهرة ذاته هذه المرة . الجنود الاسرائيليون بخوذاتهم النحاسية واسلحتهم وعدوانيتهم ، يحيطون فتاته من جهات عدة مطلقين النيران الى ان سقطت ممدة على أرض المطار فبقروا بطنها . قال :

ـ هنا . . . هذه المرة .

٥٠ ل س

بيروت .. البكاء ليلاً

شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع